من عبر التاريخ

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبر التاريخ

بقلم

الإمام محمد زاهد الكوثري

المتوفى سنة ١٣٧١هـ رحمه الله تعالى

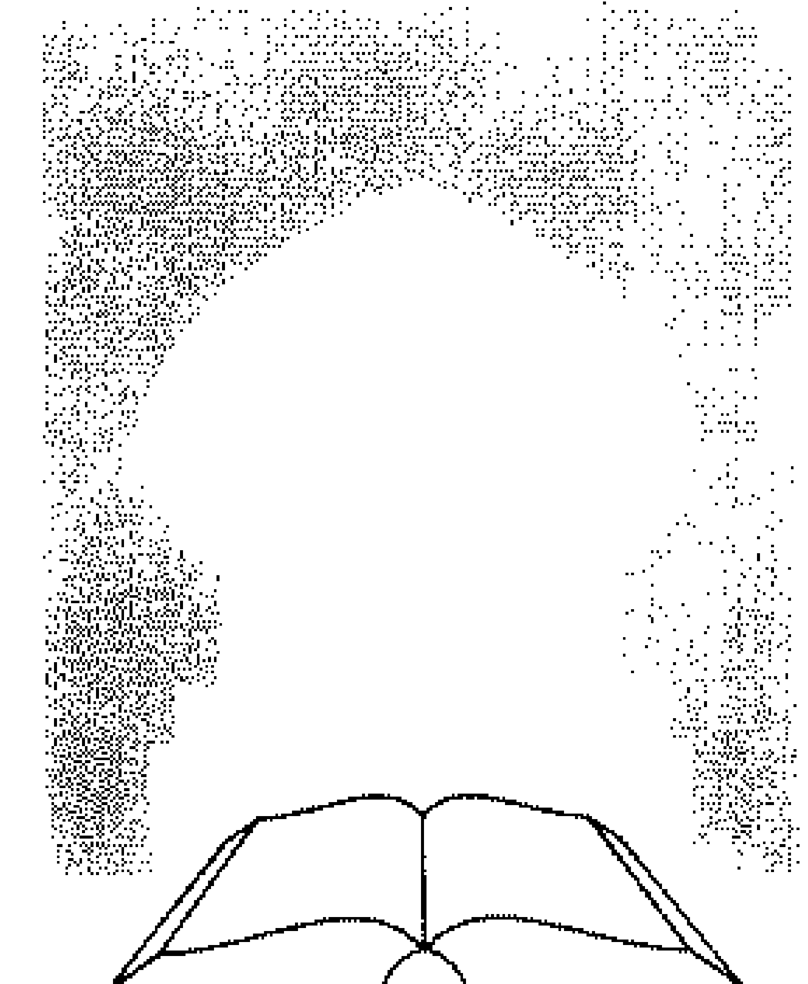
اعتنى به وعلق عليه

إياد أحمد الغوج

دار الفتح

عمان - الأردن

دارُ الفتح
للطباعة والنشر والتوزيع
عمان - الأردن



في خدمة العلوم والتراث

الطبعة الأولى
1421هـ © 2000 م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٢٠٠٠/٥/١٧٥٦).

رقم التصنيف: (٩٥٦،٠٩).

عنوان الكتاب: من عبر التاريخ.

المؤلف ومن هو في حكمه: محمد زاهد الكوثري.

المحقق: إياد أحمد الغوج.

الموضوع الرئيسي: الإسلام - تاريخ.

عدد الصفحات: ٦٤ صفحة.

قياس القطع: ١٤×٢٠سم.

تمت المراجعة والتصحيح والإخراج
بدار الفتح للطباعة والنشر والتوزيع

تطلب جميع منشوراتنا على العنوان التالي:

دار الفتح للنشر

ص.ب ١٨٣٤٧٩ عمّان ١١١١٨ الأردن
هاتف ٤٦٤٦١٩٩ (٠٠٩٦٢٦)
تلفاكس ٥١٥٠٩٠٤ (٠٠٩٦٢٦)
E-mail: alfath@go.com.jo

وتطلب منشوراتنا في بيروت من:
دار قرطبة، ص.ب ٠١٣-٥-١٤ تلفاكس ٦٥٩٠٧٣ (٠٠٩٦١١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله حقَّ حمدِه، والصَّلاةُ والسلامُ علىٰ مولانا محمّدٍ نبيِّه وعبدِه، وعلىٰ آله الطيبينَ الطاهرين، ورضيَ الله عن صحابته المنتخبين، ومَن تبعهم بإحسانٍ إلىٰ يوم الدين.

أما بعد:

فلا شكَّ أن العلماءَ العاملين الصادقين هم الحِصْنُ المنيعُ للأمّة الإسلامية في وجهِ ما يُحاكُ ضِدَّها من مكايد، وما زال العلماءُ علىٰ مرِّ الأعصار وتجدُّدِ الفِتَنِ يتصدَّون بألسنتهم وأقلامهم للذَّبِّ عن حَرِيمِ الشريعة الغرّاء، مما يحقِّق وعدَ الله ـ سبحانه ـ وفضلَه في حفظ هذا الدين.

وهذه رسالةٌ نفيسةٌ كتبها أحدُ أولئك العلماءِ الصادقين الذين وصفنا، ألا وهو فضيلةُ العلّامة الكبير الإمام محمّد زاهد الكوثريّ رحمه الله تعالىٰ، نعيدُ نشرَها[1] وما زالت تحتفظُ برَونَقِها وبَهائها، وما أحوجَ أهلَ العلم ـ بَلْهَ شُداتَهُ ـ إلىٰ مثلِها، لما تُورِثُه من يَقَظةٍ وانتباهٍ لما كاده ويكِيدُه

(١) نشرَها لأول مرة السيد عزة العطّار سنة ١٩٤٧ بمصر، وصُوِّرت طبعتُه بعدَ ذلك، ثم أعاد طبعها علي رحمي بدار مرجان للطباعة سنة ١٩٨١. ولم تُخدَم أيٌّ من هذه النشرات.

أعداءُ هذا الدِّين للمسلمين، ليأخذوا حِذْرَهم وأسلحتَهم ـ علىٰ حدِّ تعبير مؤلفها رحمه الله ـ في دفع تلك العاديات.

وقد علّقتُ علىٰ الرسالة بما دعَت إليه حاجةُ الإيضاح والإفادة، وأما تعليقاتُ المؤلفِ رحمه الله فهيَ مميَّزةٌ عن غيرها بكونها مختومةَ بحرف (ز): والله من وراء القصد، هو مولانا ونعمَ النصير، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

وكتب

إياد أحمد الغوج

بعمّان الأردن، حرسَها الله

١٣ صفر الخير سنة ١٤٢٠هـ

الموافق ٢٨ أيّار سنة ١٩٩٩م

ترجمةٌ مختصَرةٌ للإمام الكوثري[١]

هو الإمام العلّامة المحدِّث الفقيه المؤرِّخ النظّار المتكلِّم المتفنن محمد زاهد بن الحسن بن عليّ الكوثري الحنفي.

وُلد في شوّال سنةَ ١٢٩٦هـ بقرية الحاج حسن من قضاء دُوْزْجَه[٢]، وتلقّىٰ مبادىءَ العلوم من شيوخ دوزجه، ثم طلب العلم بجامع الفاتح (لمدة ١٤ عاماً)، ودرَّس فيه بعدَ تخرُّجه سنة ١٣٢٥هـ، وتولىٰ رئاسةَ مجلس التدريس (وكالةَ مشيخة الإسلام).

اضطهده الاتحاديون خلالَ الحربِ العالميةِ الأولىٰ لمعارضته خُطَطَهم في إحلال العلوم الحديثة محلَّ العلوم الدينية في أكثر حصص الدراسة. ولمّا وَلِيَ الكماليّون وجاهروا بالإلحاد أُريد اعتقاله، فركِبَ إحدىٰ البواخر إلىٰ الإسكندرية، وتنقّل زمناً بين مصرَ والشام، ثم استقرَّ في القاهرة، وعاش حياته متقلِّلاً زاهداً عفيفاً.

---

(١) انظر ترجمته في «الأعلام» (٦:١٢٩)، و«معجم المؤلفين» (٣:٣٠٢)، و«النهضة الإسلامية في سِيَرِ أعلامِها المعاصرين» للأستاذ الدكتور محمد رجب البيُّومي (٢:٤٩٣-٥٠٨)، و«من أعلام العصر» له أيضاً ص٣٣٣-٣٣٩، و«تحفة الإخوان» للجرافي ص١١٧، وله عدة تراجمَ في أثبات من أخذ عنه من العلماء. وأفرد ترجمتَه تلميذُه أحمد خيري في كتابه «الإمام الكوثري»، وقد طُبِعَ مستقلاً ثم في صدر «مقالات الكوثري». وتُنظَر كذلك الصحف المصرية بتاريخ ٢٠ من ذي الحجة سنة ١٣٧١ هجرية.

(٢) علىٰ وزن «غُرفة»، تقع إلىٰ الشرق من إستانبول.

كان يتقنُ العربية، عاليَ الأسلوبِ فيها، بالإضافة إلىٰ التركية والفارسية والجركسية، وكان واسعَ الاطّلاع جداً، خبيراً بالكتبِ مخطوطِها ومطبوعِها، حديدَ السمع والبصر والذاكرة، جميلَ الخط والصورة، فصيحاً.

ألَّفَ أكثرَ من خمسين مؤلَّفاً سوىٰ تقدماته وتعاليقه علىٰ كثيرٍ من الكتب النافعة التي أبرَزَها إلىٰ عالم المطبوعات.

فمِن مؤلفاتـه:

ـ المدخلُ العام لعلوم القرآن، في مجلدين، فُقِدَ ولا يُدرىٰ مآلُه.

ـ تأنيبُ الخطيب علىٰ ما ساقه في ترجمة أبي حنيفةَ من الأكاذيب، طُبع غيرَ مرة.

ـ نظرةٌ عابرة في مزاعم من ينكر نزولَ عيسىٰ قبلَ الآخرة، مطبوع.

ـ النُّكَت الطريفة في التحدُّث عن ردودِ ابنِ أبي شَيبةَ علىٰ أبي حنيفة، مطبوع.

ـ الإشفاق علىٰ أحكام الطلاق، مطبوع.

ـ تبديدُ الظلامِ المخيِّم من نونية ابنِ القيِّم، وهو مقدمته وتعاليقه علىٰ كتاب «السيف الصقيل» لشيخ الإسلام تقي الدين السُّبْكي، طبع غيرَ مرة. وغيرها.

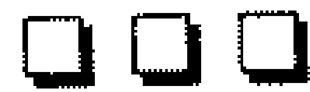
وله رسائلُ ممتعةٌ غزيرة الفوائد في تراجم «الإمام زُفَر»، و«أبي يُوسُفَ القاضي»، و«محمد بن الحسن الشيباني»، و«البدر العَيني»، و«الإمامين الحسن بن زيادٍ ومحمد بن شجاع»، و«الطحاوي»، وكلُّها مطبوعة.

وجمع تراجمَ شيوخِهِ وأسانيدَه في ثبته المسمّىٰ «التحريرَ الوجيز فيما يبتغيه المستجيز»، وهو مطبوع. وله نحو مئةِ مقالةٍ جُمِعَت في كتابِ «مقالات الكوثري»، وقد طُبِعَ عدّةَ طبعات، ومؤخَّراً طُبعت تقدماتُه علىٰ الكتب في مجلدٍ حافلٍ تحت عنوان «مقدِّماتُ الإمام الكوثري».

توفِّي بالقاهرة في ١٩ من ذي الحجة سنةَ ١٣٧١ هجرية، ففَقدَ العالَمُ الإسلاميّ واحداً من أبرز أعلامِ علمائه، وفي ذلك يقول العلّامة الشهير الشيخ محمد أبو زهرة: «لا أعرفُ عالماً ماتَ فخلا مكانُه في هذه السنين كما خلا مكان الإمام الكوثريّ، لأنه بقيةُ السلف الصالح.. كان عالماً يتحقَّق فيه القولُ المأثور: «العلماء ورثةُ الأنبياء».. عرفَ علمَهُ العلماء، وقليلٌ منهم أدركَ جهادَه.. وقد كان من المجدِّدين بالمعنىٰ الحقيقيِّ لكلمة التجديد.. قدوةٌ للعالم المسلم»[1].

رحمه الله تعالىٰ

وأجزلَ مثوبته وأسكنه فَسِيحَ الجِنان



(١) قاله الشيخُ أبو زهرة في الترجمة التي كتبها للشيخ بعد أكثر من عامٍ من وفاته، وقد نُشِرَت في صدر «المقالات» وغيرها.

نموذجٌ من خط الإمام الكوثري

يهدىٰ إلى فضيلة الأخ المقرئ
السيد عبد الودود أحمد الزراري
حفظه الله
١١ ذي الحجة ١٣٧٠
من أخيه
محمد زاهد الكوثري

العَقِيدَةُ النِّظَامِيَةُ
لإمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك الجويني
رحمه الله
رواية أبي بكر بن العربي عن الغزالي عن المؤلف

وهو إهداءٌ كتبه بخطه ـ قبل وفاته بعام ـ لأحد أصدقائه من علماء الأردن(١)، علىٰ نسخةٍ من العقيدة النظامية بتحقيقه، وهذه النسخة محفوظةٌ بمكتبة مسجد عمرَ بمدينة الزرقاء بالأردن.

(١) وهو الشيخ عبد الودود أحمد الزَّراري، عالمٌ مقرئٌ عارفٌ بالعربية والتوحيد والمنطق، تخرج في الأزهر، يافيُّ الأصل، عاش أكثر حياته في مدينة الزرقاء، وتوفي بها في حدود سنة ١٩٨٨م. من تآليفه: «مدخلٌ إلىٰ علم التجويد»، مطبوع.

[كلمةُ السيّد عزّة العطّار الحسيني(١)
صاحبِ النشرةِ الأولىٰ لهذا الكتاب]

الحمدُ لله الذي صدقَ وعدَه، ونصرَ عبدَه، وأعزَّ جُندَه، وهزمَ الأحزابَ وحدَه، لا إلـٰهَ إلا هوَ وحدَه لا شريكَ له، والصلاةُ والسلامُ علىٰ مَن لا نبيَّ بعدَه، أشرفِ مخلوقاتِه سيّدِنا ومولانا ونبينا محمدٍ صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم.

أما بعد:

فإنه لا يختلفُ اثنانِ في أنّ مولانا صاحبَ الفضلِ والفضيلةِ الأستاذَ المحقّقَ الكبير، بقيةَ السلف الصالح الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثري ـ وكيلَ المشيخة الإسلامية في الخلافة العثمانية سابقاً ونزيلَ القاهرةِ الآنَ ـ سيفٌ من سيوف الله المسلولة علىٰ رقابِ الملحِدين

(١) السيّد أبو أسامةَ عزّةُ بن أمين العطّار الحسيني الدمشقي، سليلُ دَوحة العلم والشرف، فجدُّه هو الشيخ سليم بن ياسين العطّار (ت ١٣٠٧هـ) شيخُ الشام في وقته ورئيس علمائها، وجدُّ جدِّه هو العلامة الشيخ حامد (ت ١٢٦٣هـ) ابنُ محدِّثِ دمشق وفقيهها في وقته الإمام شهاب الدين أحمد بن عُبَيد الله العطّار (١٢١٨هـ): السادةُ الحسينية الشافعية.

وعزة العطّار من تلاميذ الإمام الكوثري بعد هجرته إلىٰ مصر، أنشأ في القاهرة «مكتبَ نشر الثقافة الإسلامية»، فنشر عدداً من الكتب النافعة، منها عدّةٌ من تآليفِ وتحقيقاتِ أستاذه الكوثري، «وكان يقرأ عليه تجاربَ ما ينشره» كما في مقدمة «المقالات» ص٧٢. رحمهما الله تعالىٰ.

والزائغين الذين يعملون علىٰ تضليل العقول، وإفسادِ العقائد، وتشكيكِ الناس في معتقداتهم، تارةً بإذاعة آراء المجسِّمةِ ونشرِ كتبهم، وطَوراً بدعوةِ العامة إلىٰ الاستهانة بأوامر الدِّين ونواهيه كتهوينهم من الطهارة وخلعِ النعال في الصلاة والطعنِ في أئمة الإسلام وعلمائه الأعلام.

ففضيلتُهُ لا يألو جهداً ـ حفظه الله وأمدَّ في عمره ـ في الردِّ علىٰ أعداء هذا الدين، وإظهارِ خفاياهم، فتراه دائبَ البحث، دائمَ السهرِ علىٰ إدحاضِ مُفترياتِ المفترين، وكشفِ خفايا دسائس الزائغين، وتحذيرِ الناس إياهم. فقلَّما تجدُ أحداً يغمِزُ الإسلامَ غمزةً، أو يفتري عليه فِريةً، أو يؤوِّلُ فيه تأويلاً فاسداً إلا انبرىٰ فضيلتُه للردِّ عليه رداً علمياً مفحِماً يَقِفُهُ عندَ حدِّه.

ثم لم يكتفِ فضيلته بالردِّ علىٰ ملحِدة هذا العصر، بل أخذَ يكشفُ السِتارَ عن أسرارِ وخفايا أولئك الأغرارِ الذين أظهروا الإسلامَ وأبطنوا له العداءَ في عصوره القديمة.

فدُونَكَ أيها القارىءُ الكريم رسالةَ «مِنْ عِبَرِ التاريخ» التي حَبَّرها يَراعُ مولانا الكوثريّ، فهيَ ـ علىٰ صِغَرِ حجمها ـ غزيرةُ المادة، تبحث عن حقيقةِ الفاطميين وصحةِ نَسَبِهم، ومخالفتِهم لأوامر الدين، وكذلك تجدُ فيها تراجمَ لغيرِ واحدٍ من أعداء الإسلام الذين كادوا له في عصره الأول، وتبحثُ أيضاً في نِيّاتِ المستشرقين الذين لا تخلو بحوثُهم من التعرُّض للإسلام وصاحبِ الشرع ﷺ مهما ادّعَوا تحرِّيَ الحقائق والحَيْدةَ في البحث.

ولهذا ولما تَنْطوي عليه هذه الرسالةُ من الفوائد العلمية رجوتُ من أستاذنا الكوثري أنْ يأذنَ لي بنشرها ليعُمَّ نفعُها وفائدتها، فأذِنَ لي ـ حفظه الله تعالىٰ وأبقاه ـ بنشرها، وهٰأنذا أقدِّمُها للقرّاء وللخزانة العلمية الإسلامية، ليعُمَّ نفعُها، واللهُ سبحانه وتعالىٰ وليُّ التوفيق، وهو حسبي ونعمَ الوكيل.

الناشر

السيّد عزّة العطّار الحسيني

الدمشقي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ علىٰ سيدنا محمدٍ رسولِ الله، وآله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فهذه كلماتٌ حرّرتُها تحتَ عنوان: «من عبر التاريخ»، لتفيدَ استذكارَ صُنُوفِ الكَيد التي دبّرها أعداءُ الإسلام مدىٰ الدهور من الداخل والخارج، وتُعرِّفَ أبرزَ الشخصياتِ في تلك الفِتَنِ المدبّرة، وفيها عِظاتٌ وعِبَرٌ لمَن أرادَ أن يتذكر، وقد أذنتُ للأستاذِ السيّدِ عزّة العطّار الحسينيَ في نشرِها ليعُمَّ نفعُها نزولاً عندَ رغبته، والله سبحانه وليُّ الصَّون والعَون.

[صبرُ النبيِّ ﷺ وأصحابِهِ في حفظِ الدين]

ليس بخافٍ ما لَقِيه رسولُ الله ﷺ وأصحابُه الأبرارُ رضيَ الله عنهم من صنوف العَنَتِ من أعداء الدين الإسلامي في مبدأ الدعوة الإسلامية، بل توالت صنوفُ كَيدِهم إلىٰ أن بدأ الناسُ يدخلون في دين الله أفواجاً، فارتدَّ كيدُ الكائدين إلىٰ نحرهم بفضل تفاني المسلمين في التأسّي بتوجيهِ حَضْرةِ المصطفىٰ صلواتُ الله وسلامُهُ عليه في كل صغيرٍ وكبير.

وكانت مصابَرةُ الصحابة رضيَ الله عنهم ومثابَرتُهم في سبيل الذَّبِّ عن دين الله والدفاعِ عن رسولِ الله فوقَ كل وصف، حتىٰ شَمَل النُّور، وعَمَّ الحُبُور، وبرزت هذه الأمةُ حاملةً لِمشْعلِ الهداية، تنشرُ الدينَ الإسلاميَّ في شعوب العالم، حتىٰ تم ما تم ممّا بهرَ عيونَ البشر، وما زِلْنا به نفخر، ولا عجبَ إذا لقينا بعضَ أتعابٍ في سبيل الله في آخر الزمن، ولا طريقَ إلىٰ التغلب علىٰ تلك المتاعب إلا باتخاذ النبيِّ ﷺ والصحابةِ رضوانُ الله عليهم أجمعين أسوةً حسنةً في وجوه المثابرة والمصابرة إزاءَ أخطر الأحداث؛ فاستذكارُ صنوف الكيدِ من الأعداء يجعلُنا نأخذُ حِذْرَنا وأسلحَتَنا في كل موقفٍ بما يناسبُه.

[مكايدُ اليهود]

وما عَمِلَه بنو النَّضِير من دَسِّهم إلىٰ قريشٍ في قتالِ رسول الله ﷺ، وحَضِّهم علىٰ القتال، ودلالتهم علىٰ العَورة، وما صنعه بنو قُرَيظةَ وأهلُ خَيبرَ من أنواع المكر: نماذجُ لدسائسهم؛ وتدبيرُ المسلمين إزاءَ تلك الأحداثِ نبراسٌ يهدي إلىٰ طريق النجاح في اقتحام ما يماثلُها من المشاكل التي تحدُثُ فيما بعد.

وبعدَ أن انتقلَ النبيُّ ﷺ إلىٰ الرفيق الأعلىٰ وانتشرَ الإسلامُ في بقاعِ الأرضِ في عهدَي أبي بكرٍ وعمرَ وأوائل عهدِ عثمانَ رضيَ الله عنهم بدأت الفِتَنُ ترفعُ رؤوسَها في عهد ذي النُّورَين باستضعاف الفاتنين لِلينِ جانبه، وسعيهم الحثيثِ في إثارةِ النفوسِ ضدَّه بطرقٍ خبيثةٍ لم تكن الصحابةُ

رضيَ الله عنهم خَبَرُوا مثلَ تلك المكائدِ بعدُ، فاندفعَ مندفعون إلىٰ الفتنة حتىٰ حدثَ ما حدث، مما أوقفَ التقدُّمَ السريعَ إيقافاً مُحزِناً.

وهكذا استمرت الفتنُ بعدَه بمسعىٰ شخصياتٍ تلفَّعَت بغير أزيائها، ولسنا ننسىٰ ما كان يصنعُه عبدُ الله بنُ سَبَأ المعروفُ بابنِ السَّوداء اليهودي مِن تنقُّلِهِ من بلدٍ إلىٰ بلد، يتعثّر في أذياله لإثارةِ الفِتَنِ في عهدِ عثمانَ رضيَ الله عنه بطرقٍ شيطانيةٍ لم يكن الجمهورُ علىٰ يَقَظةٍ منها.

قال المقريزي في «الخِطَط» (٤ : ١٤٦):

«إنّ رجلًا من اليهود في خلافة عثمانَ أسلمَ فقيل له عبدُ الله بنُ سَبَأ، وعُرِفَ بابنِ السَّوداء، وصارَ ينتقلُ من الحجاز إلىٰ أمصار المسلمين يريدُ إضلالَهم، فلم يُطِق ذلك فرجعَ إلىٰ كيدِ الإسلام وأهلِه، ونزلَ البصرةَ سنةَ ثلاثٍ وثلاثين، فجعل يطرحُ علىٰ أهلِها مسائلَ ولا يصرِّح، فأقبلَ عليه جماعةٌ ومالوا إليه وأُعجِبوا بقوله، فبلغَ ذلك عبدَ الله بن عامر[1] وهو يومَئذٍ علىٰ البصرة، فأرسلَ إليه، فلما حضرَ عندَه سأله: ما أنت؟ فقال: رجلٌ من أهل الكتاب رَغِبْتُ في الإسلام وفي جِوارك. فقال: ما شيءٌ بلغني عنك؟ أُخرج عنّي. فخرجَ حتىٰ نزل الكوفة، فأُخرج منها، فسار إلىٰ مصرَ واستقرَّ بها، وقال في الناس العَجَبَ... وتحدَّث في الرَّجعةِ حتىٰ قُبِلت منه. فقالَ بعدَ ذلك: إنه كان لكل نبيٍّ وَصِيٌّ، وعليٌّ بن أبي

(١) وهو الأمير أبو عبد الرحمٰن عبد الله بن عامر القُرشيّ العَبْشميّ (ت ٥٩هـ)، فاتحُ خراسانَ وغيرها. ولّاه سيدنا عثمانُ رضيَ الله عنه البصرةَ. كان جواداً سخياً شجاعاً، فيه رفقٌ وحلم. انظر «سير النبلاء» (٣:١٨)، وهناك مصادر ترجمته.

طالبٍ ـ رضيَ الله عنه ـ وصيُّ محمدٍ ﷺ، فمَن أظلمُ ممَّن لم يُجزْ وصية رسولِ الله ﷺ في أنّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ وصِيُّه في الخلافةِ علىٰ أمّته! وقال: واعلموا أن عثمانَ أخذَ الخلافةَ بغير حق، فانهضوا في هذا الأمر، وابدؤوا بالطعنِ في أمرائكم، فأظهِروا الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر تستميلوا به الناسَ. وبثَّ دعاتَهُ وكاتَبَ مَن مالَ إليه من أهل الأمصار وكاتبوه، ودَعَوا في السرِّ إلىٰ ما عليه رأيُهم، وصاروا يكتبون إلىٰ الأمصار كتباً يضعونها في عَيْبِ وُلاتِهم، فكتبَ أهلُ كلِّ مِصرٍ منهم إلىٰ أهل المِصرِ الآخَرِ بما يصنعون، حتىٰ ملؤوا بذلك الأرضَ إذاعةً».

قال ابنُ عساكرَ في «تاريخ دمشق»:

«كان أصلُه من اليمن، وكان يهودياً، فأظهرَ الإسلامَ وطافَ بلادَ المسلمين ليلفِتَهم عن طاعةِ الأئمة، ويُدخِلَ بينهم الشرَّ، ودخلَ دمشقَ لذلك»، وأفاضَ ابنُ جريرٍ في أنبائه في «تاريخه»[1].

هكذا نمت الفتنةُ في عهد عثمانَ واستفحلَت وطَمَّت حتىٰ انتهت إلىٰ ما يعلمُه الجميع، وهذا اليهوديُّ نفسُهُ هو الذي كان يقولُ في عهدِ علي رضيَ الله عنه: إنه وصيُّ رسولِ الله وخليفتُهُ علىٰ أمته من بعده بالنص، وأحدثَ القولَ برجعةِ علي بعدَ موته إلىٰ الدنيا، وبرجعةِ رسولِ الله ﷺ أيضاً (كما هو رأيُ بعضِ اليهود في يُوشَع)، وزعمَ أنّ علياً لم يُقتَل، وأنه حيٌّ، وأنّ فيه الجزءَ الإلٰهي، وأنه هو الذي يجيءُ في السَّحاب، وأن الرعدَ صوتُه، والبرقَ سَوْطُه، كما في «الخِطَط» (٤: ١٨٢).

(١) انظر «تاريخ الأمم والملوك» لابن جرير الطبري (٤: ٣٤٠) وما بعدَها.

[العُبَيديون: نشأتهم، عقائدُهم، تاريخُهم]

ثم قال المقريزي: «ومِن ابنِ سَبَأٍ هذا تشعبت أصنافُ الغُلاة من الرافضة، وعنه أخذوا القولَ برجعة الإمام بعدَ موتِه إلىٰ الدنيا كما تعتقدُه الإماميةُ إلىٰ اليوم في صاحبِ السِّرداب (آخرِ الأئمةِ الإثنَي عشرَ)، وهو قولٌ بتناسُخ الأرواح[1]، وعنه أخذوا أيضاً القولَ بأنّ الجزءَ الإلٰهيَّ يَحُلُّ في الأئمة بعدَ عليِّ بن أبي طالب، وأنهم بذلك استحقوا الإمامةَ بطريق الوجوب كما استحق آدمُ عليه السلامُ سجودَ الملائكة، وعلىٰ هذا الرأي كان اعتقادُ دُعاة الخلفاء الفاطميين (العبيديين) ببلاد مصر». اهـ. وعلىٰ هذا الاعتقاد إسماعيليةُ الهند، ولهم هناك جامعةٌ، بل تعدَّوا إلىٰ نشرِ دعاياتهم بمصرَ اليومَ بواسطةِ بعضِ الجامعيين، لهَواهُم في مصرَ منذُ قديم، مِن حيثُ إنّ القاهرةَ كانت عاصمةَ مُلكِهم في عهد العُبَيديين، الذين يسمِّيهم بعضُهم بالفاطميين كَذِباً وزُوراً. وما فعلَه عليٌّ كرَّمَ الله وجهَه من إيقادِ الأخدودِ لأشياع هذا الخبيثِ[2] معروفٌ في كتبِ الفِرَق وتواريخ النِّحَل، وقد نصَّ ابنُ رزامٍ[3]، والباقِلاني، وعبدُ القاهر

(١) والقولُ به موجودٌ في تُلْمودهم، وهو ينافي دعوةَ رسول الله (ز).

(٢) يعني ابنَ سَبَأ.

(٣) أبو عبد الله محمد بن عليّ بن رزام الطائي الكوفيّ، له تصنيفٌ في الردِّ علىٰ الإسماعيلية الباطنية علىٰ ما في «التنبيه والإشراف» للمسعودي ص٣٩٦، و«الفهرست» لابن النديم ص١٨٦، ونقل هذا الأخيرُ عنه، ونقل عنه كذلك الذهبي في «سِيَرِ النبلاء» (١٥: ٣٢٣). قال الإمام الكوثري في تقدمته لكتاب «قواعد عقائد آل محمَّد» ص٦: «وكنتُ رأيتُ قطعةً جيّدةً من كتاب ابن رزام بين كتب الأستاذ حمدي السَّفَرْجَلاني، ولا أدري أين استقرّت هذه القطعة».

البغدادي، وابنُ السَّمْعاني، وابنُ الجَوزي، وسِبْطُه، وابنُ حجر، والسَّخاوي، والشمسُ بن طُولُون، وغيرُهم من ثقاتِ أهلِ العلم علىٰ أنهم ليسوا بفاطميين[1] وإنْ توهَّمَ ابنُ خَلْدون، وابنُ الأثير، والمقريزي[2] صحةَ نَسَبِهم لأسبابٍ مشروحةٍ في «إعلان» السَّخاوي وغيرِه[3].

---

(١) انظر «الفهرست» لابن النديم ص١٨٧، و«الفَرْق بين الفِرَق» لعبد القاهر البغدادي ص٢٨٣، و«المنتظم» لابن الجوزي (حوادث سنة ٤٠٢هـ)، و«الأنساب» للسَّمْعاني (١: ٢٥٥ الإسماعيلي)، و«الإعلان بالتوبيخ» للسخاوي ص١٧٧، و«اللمعات البَرْقية في النكت التاريخية» لابن طولون ص٩٠.

وقال الحافظ أبو عبد الله الذهبي في «سِيَر النبلاء» (١٥: ١٤١-١٤٢) في ترجمة عُبيد الله المهدي مؤسِّس الدولة العُبيدية: «أول من قامَ من الخلفاء الخوارج العبيدية الباطنية الذين قَلَبوا الإسلامَ وأعلنوا بالرفض وأبطنوا مذهبَ الإسماعيلية.. وادّعىٰ هذا المُدْبِرُ أنه فاطمي.. والمحققون علىٰ أنه دَعِيٌّ».

(٢) انظر «مقدمة ابن خلدون» (١: ٣٠٩)، «الكامل» لابن الأثير (٨: ٢٤ حوادث ٢٩٦هـ)، «اتعاظ الحُنفا بأخبار الفاطميين الخُلفا» للمقريزي (١: ٢٢).

(٣) وللعلّامة البارع المؤرِّخ الوزير جمال الدين ابن ظافر الأزديّ (ت ٦١٣هـ) كلامٌ نفيسٌ في كتابه البديع «أخبار الدول المنقطعة» حولَ إبطال نسب العبيديين، وممّا قاله هناك:

«والسببُ في خفاء زُورِهم في ادّعائهم الشَّرَف ـ حتىٰ إننا لا نجدُ في عصرنا مَن يَمُجُّ سمعَهُ ذلك إلا اليسيرَ من الناس ـ أنّ القومَ كانوا في ابتداء مُلكهم ووقتِ ادّعاء زُورِهم لا يَسمعون بمُنكِرٍ لأمرهم طاعِنٍ علىٰ مذهبهم إلا بادروه بالعطايا وأتحفوه بالأموال والرَّغائب وطلبوا الكفَّ منه، فإن أبىٰ عملوا علىٰ قتله بأنواعٍ من الحِيَلِ والمكر التي عليها بُنِيَ مذهبهم. هذا أحوال سُراةِ الناس ورؤسائهم، وأمّا الطَّغام فإنهم دخلوا في دعوتهم لاستحواذ الدُّعاة عليهم، وطالَ الوقتُ وامتدت المدّة حتىٰ انتهت =

قال أبو شامةَ الحافظُ في «الروضتين» [حوادث ٥٦٧هـ]: «ولم يكونوا فاطميين، وإنما كانوا ينتسبون إلىٰ عُبَيد ـ وكان اسمُه سعيداً ـ وكان يهودياً حدّاداً بسَلَمِيَةَ[1]، بحِمْصٍ في الشام».

وقال ابنُ كثير في «تاريخه» (١٢: ٢٦٧) [حوادث ٥٦٧هـ]:

«وكان أولُ مَلِكٍ منهم المهدي، وكان من سَلَمِيَةَ حدّاداً.. وكان يهودياً فدخل بلادَ المغرب، وتسمّىٰ بعُبَيد الله، وادّعىٰ أنه شريفٌ علويٌّ فاطميٌّ، وقال عن نفسه إنه المهدي».

وعن فقيهِ العبيديين يعقوبَ بن كِلِّسَ يقول ابنُ عساكرَ في «تاريخ دمشق»: «كان يهودياً من أهل بغداد، خبيثاً ذا مكرٍ، وله حِيَلٌ ودهاءٌ، وفيه فِطْنةٌ وذكاء»، إلىٰ أن ذكرَ كيف أسلمَ طمعاً في الوزارة[2].

= إلينا وقد نُسِيَ ما كان منهم، وذُهِلَ عمّا صَدَرَ عنهم، وقد كانوا علىٰ أيّام المنعوتِ منهم بالعزيز كاد كذبُهم يذهبُ مع الريح، وزورُهم أن يرجعَ كالهَباء المنثور لمّا مَلَكَ عَضُدُ الدولةِ فنّاخسرو بغدادَ، لأنه حشر الأشرافَ الطالبيين من جميع آفاق العراق وسألهم عنهم، فكلُّهم أنكرهم ونفاهم وتبرّأ منهم، فأخذ خطوطهم..» إلخ ما ذكره في «أخبار الدول المنقطعة» ص٤-٥ من نشرة أندريه فريه للقسم الخاص بالفاطميين منه.

(١) قال ياقوت في «معجم البلدان» (٣: ٢٤٠): «سَلَمْيَة: بفتح أوّله وثانيه وسكونِ الميم وياءٍ مثناةٍ من تحت خفيفة.. وأهلُ الشام يقولون: سَلَمِيّة، بفتح أوّله وثانيه وكسر الميم وياء النسبة». ولا تزال سلمية حتىٰ الآن موطناً للإسماعيلية.

(٢) انظر أخبارَه في «الإشارة إلىٰ مَن نال الوزارة» لابن الصَّيرفي ص١٩، و«المنتظم» (وفيات ٣٨٠هـ)، و«وفيات الأعيان» (٧: ٢٧-٣٥)، و«سِيَر النبلاء» (١٦: ٤٤٢)، و«إنباء الأمراء بأنباء الوزراء» لابن طولون ص٥٨، وغيرها.

وقال الذهبيُّ في «تاريخ الإسلام الكبير» عن فقيههم الآخرِ النعمانِ القَيرَواني[١]: «وتصانيفُه تدلُّ علىٰ زندقته وانسلاخه من الدِّين، أو أنه منافقٌ نافقَ القومَ، كما ورد أن مغربياً جاء إليه فقال: قد عزمَ الخادمُ علىٰ الدخول في الدعوة ـ يعني دعوةَ ملاحدةِ الإسماعيلية ـ فقال: ما يحمِلُكَ علىٰ ذلك؟ قال: الذي حملَ سيِّدَنا. قال: نحنُ أدخَلْنا في هواهُم حَلْواهُم، فأنتَ لماذا تدخُل ؟!»[٢].

وفي «العِبَرِ» للذهبي [وفيات ٣٦٣هـ] و«شَذَراتِ الذهب» لابن العماد (٣: ٤٧): «والنعمانُ بنُ محمدِ بن منصورِ القَيروانيّ، القاضي أبو حنيفةَ، الشيعيُّ ظاهراً، الزنديقُ باطناً، قاضي قضاة الدولة العُبَيدية، صنّفَ كتابَ ابتداء الدعوة[٣]، وكتاباً في فقه الشيعة، وكتباً كثيرةً تدُلُّ

(١) ويكاد لا يوجد بين رجالات تلك الدولة مَن يوازي النعمانَ بن محمدٍ هذا فيما خدم به دعوتهم من تدوين عقائدهم وأخبار أئمتهم، إذ له ما يقرب من خمسين مصنفاً في ذلك، طُبِعَ منها حتىٰ الآن: «دعائم الإسلام»، «تأويل الدعائم»، «الاقتصار»، «أساس التأويل»، «افتتاح الدعوة»، «الأرجوزة المختارة»، «شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار»، «المجالس والمسايرات». انظر: مقدمة تحقيق «المجالس والمسايرات» بقلم الأستاذ إبراهيم شبُّوح ورفيقه.

(٢) وقال عنه في «سيَر النبلاء» (١٦: ١٥٠): «العلّامة المارق، قاضي الدولة العُبَيدية. كان مالكياً فارتدَّ إلىٰ مذهب الباطنية، وصنَّفَ لهم أُسَّ الدعوة، ونبذَ الدِّين وراءَ ظهره، وألَّفَ في المناقب والمثالب، وردَّ علىٰ أئمة الدين، وانسلخ من الإسلام، فسُحقاً له وبُعداً».

(٣) اسمه تحديداً «افتتاح الدعوة»، حققه الدكتور فرحات الدشراوي سنةَ ١٩٦١ وتأخر نشره حتىٰ سنة ١٩٧٥ بتونس، وخلال ذلك أصدرت الدكتورة وداد القاضي نشرتها للكتاب سنة ١٩٧٠ عن دار الثقافة ببيروت.

علىٰ انسلاخه من الدِّين، يبدِّلُ فيها معانيَ القرآنِ ويحرِّفُها، ماتَ بمصرَ سنةَ ٣٦٣، في رجب، ووَلِيَ بعدَه ابنُه».

وقد سَلَّمَ المُعِزُّ العُبَيدي ـ باني القاهرة ـ أبا بكرٍ النابلسيَّ العابدَ المشهورَ لِيَهوديٍّ ليسلخَه فسلخَهُ وهو يتلو القرآنَ كما في «تاريخ ابن كثير» (١١: ٢٨٤)[١]، فيُعلَمُ من ذلك أنّ سَدا دولةِ العُبَيديينَ ولُحْمَتَها: اليهوديةُ نَسَباً ونِحْلةً.

والذين ينوِّهُون بهم من غيرِ نظرٍ إلىٰ الحقائقِ هم الذين يسعَون في إحياء ذكرىٰ أمثال المتنبي وأبي العلاء المَعرِّي، مدفوعين من جامعِ للمعرَّتَين في التنويه بالاثنين، كأنهم لا يجِدُون في رجالِ الإسلام وأدباء العرب مَنْ يستحقُّ مثلَ هذا الإجلال مِن غير الأظِنّاء المتهمِين في الخُلُق والدِّين !! وما يكون هذا إلا تنويهاً بالإلحاد والملحِدين يأباه أهلُ اليقين.

وكان الباقِلّاني يقول عن العُبيديين: «هم قومٌ يُظهِرون الرفضَ، ويبطنونَ الكفرَ المَحْض»، حتىٰ ألَّفَ «كشفَ الأسرار وهَتْكَ الأستار»[٢]

(١) في «العِبَر» للذهبي (وفيات ٣٦٣هـ): «وفيها أبو بكرٍ النابلسي. الشهيد، سلخه صاحبُ مصر، المعزّ، وكان قد قال: لو كان معي عشرة أسهُم لرميتُ الرومَ سهماً ورميتُ بني عُبَيدٍ تسعةً، فبلغت القائدَ جَوهر، فلمّا قرَّره اعترفَ وأغلظ لهم، فقتلوه. وكان عابداً صالحاً زاهداً قوّالاً بالحق».

وقد حَشَوا جلدَه تِبْناً وصُلِب، وكان الحافظ الإمام أبو الحسن الدارقطني يذكره ويبكي، ويقول: كان يقولُ وهو يُسلَخ: ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾. «كتاب الروضتين» لأبي شامة (٢: ٢٢٠).

(٢) ذكره ابن ظافر الأزدي في «أخبار الدول المنقطعة» ص٢، والسبكي في «طبقاته الكبرىٰ» (٧: ١٨)، وابن كثير في «البداية والنهاية» (١٢: ٢٦٨ وفيات ٥٦٦هـ)، وابن تغري بردي في «النجوم الزاهرة» (٤: ٧٥) ونقلَ منه. وغيرُهم.

في الردِّ علىٰ كتاب «البلاغ الأعظم والناموسِ الأكبر» لبعض قُضاة العُبَيديين بمصر[1].

وألَّفَ بعدَه الحافظُ أبو شامةَ فيهم كتابه «كشف ما كان عليه بنو عُبيد، من الكفرِ والكَذِبِ والمكرِ والكَيد»[2].

وقال عنهم ابنُ كثيرٍ في «تاريخه» (١٢ : ٢٦٧) [حوادث ٥٦٧هـ]: «كانوا من أغنىٰ الخلفاء وأجبرِهم وأظلمِهم، وأنجسِ الملوكِ سيرةً وأخبثِهم سريرة».

وقال أبو الحسن القابِسي[3]: «الذين قتلَهم عُبيدُ الله وبنُوه بعدَه ذبحاً في دارِ النحر التي كانوا يعذِّبون فيها الناسَ ليرُدُّوهم عن الترضِّي علىٰ الصحابة ـ أربعةُ آلافِ رجلٍ ما بين عالمٍ وعابدٍ اختاروا الموتَ علىٰ لعن الصحابة»[4].

---

(١) ذكر ابن النديم في «الفهرست» ص١٨٩ أنّ من كتب الباطنية الإسماعيلية: البلاغات السبعة، فالبلاغ الأول للعامّة، والثاني لمَن فوقَهم قليلاً، والثالث لمَن دخلَ في المذهب مدّةَ سنةٍ، والرابعُ لمَن دخل لمدة سنتين، والخامسُ لثلاث سنين، والسادسُ لأربع سنين، أما السابع ففيه نتيجةُ المذهب والكشفُ الأكبر، قال: «قال محمد بن إسحاق: قد قرأتُه فرأيتُ فيه أمراً عظيماً من إباحة المحظورات والوضع من الشرائع وأصحابها». وفي «الفَرْق بين الفِرَق» للإمام عبد القاهر البغدادي ص٢٩٤ أنّ «البلاغ الأكيد والناموس الأعظم» (كذا عنده) هو رسالةُ عُبَيد الله بن الحسين القيرواني إلىٰ سليمان بن الحسن بن سعيد الجنّابي.

(٢) ذكره الإمامُ أبو شامةَ لنفسه في كتابه «الروضتين» (٢ : ٢٢٢) وفي «ذيله» ص٣٩، وذكره غير واحدٍ من مترجميه كذلك.

(٣) الإمام الحافظ الفقيه أبو الحسن علي بن محمد المَعافري القَرَويّ القابسيّ المالكي (٣٢٤-٤٠٣هـ)، إمام المالكية في عصره.

(٤) نقله الذهبي في «سير النبلاء» (١٥ : ١٤٥)، وغيرُه.

وأما الذين انصاعُوا لهم وشرَقُوا[1] ـ علىٰ مُصطلَحِهم ـ ففي غايةٍ من الكثرة، وأما الذين قتلوهم من عامة المسلمين فيما بين المغرب الأقصىٰ ومصرَ فلا يَعلم عددَهم إلا الله سبحانه، والوثيقةُ التي أصدرَها علماءُ المذاهب وأئمتُها في إبعادِهم عن النَّسَب الزكيّ مدوَّنةٌ في «منتَظَم» ابن الجَوزي، و«تاريخ ابن كثير» وغيرِهما[2]، والموقِّعون عليها جبالٌ في الدِّينِ والعلم والثقة، ومن ظنَّ انحيازَهم إلىٰ خليفةٍ ببغدادَ قاسَهُم بنفسِه، ولم يعرفهم ولا عرفَ ذلك الخليفةَ كما بيّنتُ ذلك فيما علّقتُ علىٰ «كشف أسرارِ الباطنية»[3]، فليس من شأن قلم الحُرِّ المعتزِّ بدينه الاسترسالُ في مناصرةِ أعداءِ الإسلام الذين اكتَظَّت كتبُ ثقاتِ أهل العلم بأنبائهم الإلحادية.

قال ابنُ كثيرٍ في «تاريخه» (١٢ : ٩) عن الحاكم بأمر الله منهم: «كان يَرُومُ أن يدَّعِيَ الألوهيةَ كما ادّعاها فرعون، فكان قد أمرَ الرعيّةَ إذا ذكرَ

---

(١) إشارةً إلىٰ وقوع الزَّلَل مع الاضطرار.

(٢) «المنتظم» لابن الجوزي (حوادث سنة ٤٠٢هـ)، «البداية والنهاية» لابن كثير (١١ : ٣٤٥ حوادث سنة ٤٠٢هـ).

(٣) وفي المحضر الذي أصدره أهلُ العلم سنةَ ٤٠٢هـ أنهم: «أدعياءُ لا نسبَ لهم في ولد عليٍّ رضيَ الله عنه. .»، ومن جملة مَن وقَّعَ عليه الشريفان الرَّضِيُّ والمرتضىٰ، وأبو محمدٍ الأكفاني القاضي، وأبو حامدٍ الإسفراييني، وأبو الحسين القُدُوري، وغيرُهم من كبار الأئمة، وهذا حكمٌ شرعيٌّ يجبُ الخضوعُ له، ولو أُعطِيَ هؤلاءِ الدنيا بحذافِيرِها لَمَا حكمَ بما يخالفُ الحق. (ز).

قلت: و«كشف أسرار الباطنية [وأخبار القرامطة]» هذا من تأليف العلاّمة محمد بن مالكٍ الحمّادي اليماني (ت حوالي ٤٥٠هـ)، قدَّمَ له الشيخ الكوثري وعلَّقَ عليه، ونشره تلميذُه عزّة العطار، وطُبع بمطبعة الأنوار بالقاهرة سنةَ ١٣٥٧هـ-١٩٣٩م.

الخطيبُ علىٰ المنبرِ اسمَهُ أن يقومَ الناسُ علىٰ أقدامهم صُفوفاً، إعظاماً لذكره، واحتراماً لاسمِه، فعلَ ذلك في سائرِ ممالكه حتىٰ في الحرمَين الشريفين، وكان قد أمرَ أهلَ مصرَ علىٰ الخصوصِ إذا قاموا عندَ ذكره خرُّوا سُجَّداً له، حتىٰ إنه ليَسجدُ بسجودهم مَن في الأسواق من الرَّعاع وغيرِهم ممن كان لا يصلي الجمعة، وكانوا يتركون السجودَ لله في يومِ الجمعةِ وغيره ويسجدون للحاكم». اهـ.

وقال ابنُ الجَوزي في «المنتظم» (٧: ٢٩٨): «ثم ازدادَ ظلمُ الحاكم حتىٰ عنَّ له أن يدَّعِيَ الربُوبية، فصار قومٌ من الجُهّال إذا رأوه يقولون: (يا واحِدَنا، يا أحَدَنا، يا محيي، يا مميت)، قبَّحَهم اللهُ جميعاً».

ومَن عَلِمَ أن مدّةَ حكمِ الحاكم هذا من سنة ٣٨٦هـ إلىٰ سنة ٤١١هـ يرىٰ الاعتذارَ عنه بأنه كان مجنوناً: كلاماً لا يُلتفتُ إليه، لأنّ مِن المُحالِ في جاري العادة أن يُستَبقىٰ حاكمٌ وهو مجنونٌ مدةَ خمسٍ وعشرين سنةً! ومِنَ الحاكمِ هذا تفرَّعت نِحْلةُ تأليهِهِ عندَ الدُّرُوز، وفي الجزء الثالث من «خلاصة الأثر» حكمُ أهلِ المذاهبِ فيهم[1].

ولسنا ندريَ دولةً من الدول في تاريخ الإسلام حَكَّمت علىٰ رقابِ العربِ صنوفَ الصَّقالبةِ والصِّقِلّيين وطوائفَ الرومِ والأرْمَنِ واليهودِ والكُتاميين[2]

(١) «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» للمؤرِّخ محمد أمين المُحبّي (٣: ٢٦٨)، في ترجمة الأمير فخر الدين بن قرقاس بن معن الدرزي.

(٢) نسبةً إلىٰ كُتامةَ: قبيلةٌ بربريةٌ كبيرةٌ بالمغرب، من أشد قبائل البربر بأساً وأكثرهم عدداً، وكانوا ممّن شايَعَ العبيدِيين. تكلم عنهم ابن خَلدون في «العِبَر»، وغيرُه. وانظر للتوسّع كتاب «دور كُتامةَ في تاريخ الخلافة الفاطمية»، للدكتور موسىٰ يقْبال (الجزائري).

سوىٰ دولةِ العُبيديين[1]، فيكونُ مِن المُضحِكِ المُبكي محاولةُ الاعتزازِ بأمثالِ هؤلاء في آخر الزمن، والمحرابُ القديمُ في الأزهر: كمبكىٰ اليهودِ في المسجدِ الأقصىٰ في نظرِ بقايا هؤلاء الإسماعيليةِ في الهند، ومن العَجَبِ تمكُّنُهم من إقامةِ دعاياتٍ لهم بمصرَ في غفلةٍ من الزمن.

ترىٰ شاباً متخرِّجاً في الجامعةِ الإسماعيليةِ في كُجْرات ـ وهي لا تقبل طالباً لا يكونُ إسماعيلياً رُوحاً ودماً كما هو معلومٌ ـ ينتسبُ يوماً ما إلىٰ الأزهر باسم أنه شافعيٌ أو حنفي، ويُبْدي نشاطاً غريباً في الدعاية للإسماعيلية إلىٰ أن تجدَهُ يقولُ في العدد (٣٣١) من مجلة «الرسالة» في مقالٍ له عن ديوان تميم بن المعزِّ العُبَيدي: «فإذا ما أُتِيحَ للفاطميين أن يُقيموا دولتَهم الكبرىٰ في وادي النيل فنحنُ أمامَ دولةٍ عربيةٍ هاشميةٍ تحمي اللغةَ كما تحمي كتابَها ودِينَها». وهذا قلبٌ للحقائق كما أوضحتُ ذلك في (٣٦-١٣٦١هـ) من مجلة «الإسلام». وهذا الشابُّ نفسُه هو الذي يقول في ذلك المقال: «ومن أحسن ما قِيل في تميم بن المعِزِّ الفاطمي قولُ ابنِ رَشِيق:

أصحُّ وأعلىٰ ما سَمِعناه في النَّدىٰ ... منَ الخبرِ المأثورِ منذُ قَديمِ
أحاديثُ تَروِيها السُّيُولُ عن الحَيا ... عنِ البحرِ عن كفِّ الأميرِ تميمِ». اهـ

(١) وقد سردَ الحافظ الذهبي تراجمَ أئمة العبيديين من أولهم (عبيد الله) إلىٰ آخرهم (العاضد) متواليةً في نَسَقٍ واحد، مع بيان ألوان فعائلهم، وذلك في المجلد (١٥) من كتابه «سِيَر النبلاء» ص١٤١-٢١٥.

وكانت جملة ملوك العبيديين ١٤ ملكاً، حكموا مدّةَ ٢٧٠ سنةً (من سنة ٢٩٧ إلىٰ سنة ٥٦٧هـ).

فيجعلُ ممدوحَ ابنِ رشيقٍ تميمَ بنَ المعزِّ العُبَيديَّ مع أنه لم يُدركه حتىٰ يُتصَوَّرَ أن ينظِمَ في مدحِهِ قصائدَ رنّانةً! بل ممدوحُهُ هو بلديُّ ابنِ رشيقٍ تميمُ بنِ المعزِّ بادِيسَ المتأخرُ الوفاة[١]، وليس بين ترجمتيهما في «تاريخ ابن خَلِّكان» غيرُ خطٍ فاصل، وفيه النصُّ علىٰ أنّ الممدوحَ هو ابنُ باديس، لكن الدعايةَ تجعل الليلَ نهاراً والصيفَ شتاءً[٢].

وزِدْ علىٰ ذلك ما تراه في الجزء الثالث من مجلة «الأزهر» لسنة ١٣٥٧هـ (ص١٨٠) تحتَ ستارِ التوصية بالابتعاد عن التعصُّب:

«٣- أن يكونُ الأزهرُ كعبةَ جميعِ المسلمين علىٰ اختلاف مذاهبهم، ويُدرَّسَ فيه المذاهبُ العَلَوية: كمذهبِ الزيدية، والإمامية، والإسماعيلية ـ إن كان له بقيةٌ ـ فهو الأحقُّ مِن سواه».

انظر إلىٰ هذه الجُرأةِ وهذه الصراحةِ ممّن يَعرفُ ما هي نِحْلةُ الإسماعيلية؟! وصاحبُ المقال كان يَعرفُ كتبَهم المحفوظةَ في دار الكتب

---

(١) وكان والدُ تميم: المعزُّ بن باديس من ملوك الدولة الصنهاجية بإفريقية، كانت خطبته للفاطميين فقطعها سنةَ ٤٤٠هـ وجعلَها للعبّاسيين، فنشبت بينه وبين الفاطميين الحرب. وكان سببُ تسنُّنه ومن ثَم تمرُّدِه علىٰ العبيديين عنايةُ أحد علماء أهل السنة بتربيته وتنشئته، وفي ذلك عبرةٌ بالغةٌ فيما يتوجَّبُ علىٰ العلماء تجاه أبناء الجيل. ومما وُجِدَ بخطه علىٰ مصحفٍ حبّسه علىٰ جامع القيروان: «أشهدُ أن لا إلـٰه إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله صلىٰ الله عليه، وأنّ أفضلَ الناس بعدَ رسولِ الله أبو بكرٍ ثم عمرُ ثم عثمان ثم علي، رضيَ الله عنهم أجمعين. **اللهم العَنْ بني عُبَيدٍ أعداءَكَ وأعداءَ نبيك، نفعنا اللهُ ببغضهم أجمعين**». انظر صورة خطِّه هذا في «الأعلام» (٧:٢٦٩).

(٢) وقد أشار المؤلِّفُ رحمه الله إلىٰ وجهٍ آخرَ من نشاط هذا الشابِّ الإسماعيلي، وهو التقريبُ ـ ظاهراً ـ بين السنة والشيعة، في مقالته (حولَ فكرة التقريب بين المذاهب)، انظر «المقالات» ص١٢٧.

المصريةِ علىٰ الأقل، لكنْ هذا طرازٌ في الدعاية. فكأنّ الكاتبَ كان يُريدُ التمهيدَ لتسليمِ البضاعة، كما أنّ إخلاءَ الأزهر من الدراسةِ رسمياً يوماً ما كان تمهيداً لذلك أيضاً، لكنّ اللهَ رَدَّ كيدَ الكائدين في نَحْرِهم.

ومما يدلُّ علىٰ أن أمَدَ بكاء الإسماعيلية يطولُ: مشروعُ زعيمِهم في امتلاكِ حِصَصٍ كبيرةٍ من مدينة الأوقافِ المُزْمَعِ إنشاؤها. وفي محضَرِ المحادثة بين زعيمِ الإسماعيلية ورئيس الأزهر المنشورِ في إحدىٰ المجلاتِ قبلَ سنينَ ما يكشفُ عن كثيرٍ من اتجاههم في هذا الصدد، وكلُّ ذلك من عجائبِ الزمن[١].

[عَودٌ لمكايد اليهود]

ورئيسُ طائفة العَنانية من اليهودِ المعروفُ بعانان (رأسِ الجالوت) الذي كانَ قَدِمَ من المشرق في أيام المنصورِ العبّاسي، ورئيسُ طائفةِ العيسوية من اليهود أبو عيسىٰ إسحاقُ بن يعقوبَ الأصفهاني المعاصر للمنصور العبّاسي أيضاً[٢]، كانا يقولان: إنّ محمداً ﷺ نبيٌّ مُرسَلٌ لكن إلىٰ العربِ خاصةً، وكانا يريدان بذلك الدسَّ بين المسلمينَ وإفسادَ ما بين

---

(١) وقد توسّع المؤلف الإمام الكوثري في الكلام حول العبيديين والباطنية عموماً كذلك في تقدماته لـ «كشف أسرار الباطنية» للحمّادي، و«قواعد عقائد آل محمد ـ قسم الرد علىٰ الباطنية»، و«المقدمات الخمس والعشرون من دلالة الحائرين»، وانظر «مقالاته» ص١٠٠-١٠١.

(٢) انظر حولهما: «المِلَل والنِحَل» للشهرستاني (١:٢١٥)، و«اعتقادات فِرَق المسلمين والمشركين» للإمام الرازي ص١٢٨، و«الخطط» للمقريزي (٢:٤٧٧)، وغيرها.

العربِ وغيرِهم من الإخاءِ الإسلاميِّ المنصوصِ عليه في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، مع ظهور أنه ﷺ مبعوثٌ إلىٰ كافةِ الناسِ بشيراً ونذيراً بنصِّ القرآنِ الحكيم، والنَّعْرةُ العُنصريةُ مع هَجْرِ الإخاءِ الإسلاميِّ تكون انخداعاً بمكر الماكرين مِن هؤلاء، ولا ينخدعُ بذلك إلا مَن انطمسَت بصيرتُهُ وتاهَ في مَهامِهِ الجاهليةِ الأولىٰ، فنسألُ اللهَ الصَّون.

ولكثيرٍ من اليهود في البلاد الإسلامية بَراعةٌ في الطبِّ والفَلسفة، ولثلاثةٍ منهم أعمالٌ خاصةٌ تَهُمُّ المشتغلينَ بشؤونِ الإسلام، فنَلفِتُ إليهم الأنظار، وهم: ابنُ كَمُّونة، وابنُ مَيمُون، وابنُ ملكا.

[ابن كَمُّونة اليهوديّ](١)

فابنُ كَمُّونةَ هو: عزُّ الدولة(٢) سعدُ بن منصور البغدادي المتوفىٰ سنة ٦٨٣هـ، ملحِدٌ صريحٌ، ألّفَ «تنقيحَ الأبحاث عن المِلَلِ الثلاث»(٣)، تعرَّضَ فيه للنبوّة محاولاً أن يقضيَ علىٰ الأديان الثلاثة، قائلاً: «عليَّ وعلىٰ أعدائي»، لكن قضىٰ علىٰ نفسه من غير أن يقضيَ علىٰ الأديان، حيثُ ثارَ الناسُ ببغدادَ ضدَّ هذا الملحِدِ وهَمُّوا بقتلِه، إلا أنه وجدَ مَن

(١) انظر ترجمته في «تلخيص مجمع الآداب» لابن الفُوطي (٤/١: ١٥٩)، و«الأعلام» (٣: ١٠٢)، و«معجم المؤلفين» (١: ٧٥٨).

(٢) في المطبوعة: عز الدين، والمثبَت من مصادر ترجمة ابن كمُّونة.

(٣) وقد طُبع هذا الكتابُ في جامعة كاليفورنيا سنةَ ١٩٦٧م بتحقيق اليهودي موسىٰ بيرلمان Moshe Perlmann، ثم أعادت نشرَه تصويراً دار الأنصار بالقاهرة. ومن نسخه الخطية نسخةٌ بمكتبة تشستربيتي بدَبْلن برقم (٤٩٦٥) في ٩٤ ورقة.

يُهرِّبه في صندوقٍ إلىٰ الحِلّةِ عندَ ابنه، فأقام عندَه أياماً، ثم أدركه هناكَ الموت ـ الأحمر ـ جامعاً بين الخُسْرانَين كما في (ص٤٤١) من «الحوادث الجامعة في المئة السابعة» للمؤرِّخ الكبير عبد الرزّاق الفُوَطي(١)، ومن مُريدي هذا الملحِدِ اليهوديِّ في آخرِ الزمن جميل صدقي الزَّهاوي(٢)،

(١) حققه ونشره العلاّمة الدكتور مصطفىٰ جواد رحمه الله تعالىٰ ـ في مقتبَلِ عمره ـ ببغداد سنة ١٩٣٢م عن نسخةٍ مخرومةِ الأول رجّح أنها «الحوادث الجامعة» لابن الفوطي، ثم أعاد النظر والبحث بعدَ سنينَ فظهر له أنها ليست نسخةً لهذا الكتاب، لأسباب عديدةٍ ذكر طرفاً منها في مقدمة تحقيقه لـ «تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب» لابن الفوطي (٤/١: ٦٢-٦٦). أمّا ترجمةُ ابنِ كمّونة التي في هذا الكتاب: «تلخيص مجمع الآداب» فليس فيها سوىٰ ثنائه علىٰ معارفه وأنه تعذّر عليه لقاؤه.

قلت: وقد أعاد طبعَ تلك النسخةِ التي نُسبت خطأً لابن الفُوطي: الدكتوران: بشار عوّاد معروف وعماد عبد السلام رؤوف، بعنوان: «كتاب الحوادث لمؤلِّفٍ من القرن الثامن الهجري، وهو المسمّىٰ وهماً بالحوادث الجامعة..»، وحقّقاه تحقيقاً علمياً جيداً، لقيمته التاريخية العالية وإن جُهِلَ مؤلِّفُه حتىٰ الآن.

(٢) العراقي الشاعر الفيلسوف (١٣٥٤هـ-١٩٣٦م ببغداد) ترجمته في «المعاصرون» لمحمد كرد علي ص١٤٨-١٦١، و«الأعلام» (٢: ١٣٧)، و«معجم المؤلفين» (١: ٥٠٥، ٣: ١٩٩)، وغيرها. قال الأستاذ محمد كرد علي: «أرسلَ لي إلىٰ مصرَ عدّةَ قصائدَ من شعره فيها حَطٌّ من الأديان.. وبعثَ لي من بغدادَ مجموعةً من القصائد.. حوَت ضروب الإقذاع والسفاهة.. والزَّهاويُّ مُولَعٌ بالغرائب ومخالفة الجمهور، اخترعَ حروفاً عربيةً بدعوىٰ أنّ حروفَنا لا تصلحُ للكتابة، فضحكَ العارفون به.. وقال: إنّ الشعرَ العربيَّ تقيّده قوافيه فاخترع شعراً لا قوافيَ له ولا أوزان! فسقط اختراعه أيضاً، وقال أيضاً باعتماد اللغة العامية دون اللغة الفصيحة في التأليف! فما سُمِعَ له. وقال بمثل ذلك من الآراء يقصدُ بها مخالفةَ العُرف والعادة والأديان والمذاهب، وكان جَسُوراً في بثِّ آرائه.. وكان شاذّاً من أول أمره إلىٰ خاتمة عمره، وما حداه علىٰ كل ذلك إلا ليُقالَ عنه إنه فيلسوفٌ مجدِّد».
=

وكان يفتخرُ بكتابٍ له محفوظٍ عندَه[١]، وكذا الرُّصافي المعروف[٢].

= قلت: ولعلَّ أبلغَ دليلٍ علىٰ شذوذ هذه الشخصية ما قاله هو ـ الزهاوي ـ في وصف نفسه: «كنتُ في صبايَ أُسمّىٰ «المجنون» لحركاتي غير المألوفة، وفي شبابي «الطائش» لخِفّتي وإيغالي في اللهو، وفي كهولتي «الجريء» لمقاومتي الاستبداد، وفي شيخوختي «الزنديق» لمُجاهرتي بآرائي الفلسفية». كذا في ترجمته بقلمه التي نشرتها مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (مج ٨، ج٥: ٢٩٢-٢٩٨ سنة ١٣٤٦-١٩٢٨).

ومن شعره الدالِّ علىٰ إلحاده ـ كما في «موقف العقل» (٢: ٤٣٣) لشيخ الإسلام مصطفىٰ صبري ـ:

لمّا جَهِلْتَ من الطبيعةِ أمرَها ... وأقمتَ نفسَكَ في مَقام مُعلِّلِ
أثبتَّ ربّاً تبتغي حَلّاً به ... للمشكِلاتِ فكان أكبرَ مُشكِلِ

(١) وهو نسخةٌ من كتاب ابن كمُّونة «الجديد في الحكمة»، وقد عُرِضَت للبيع بعدَ وفاته. أفاده العلّامة مصطفىٰ جواد في تعليقه علىٰ ترجمة ابن كمّونة من «تلخيص مجمع الآداب» (٤/ ١: ١٥٩).

قلت: وقد طُبع «الجديد في الحكمة» بوزارة الأوقاف ببغداد سنةَ (١٤٠٣-١٩٨٢) بتحقيق حميد مرعيد الكبيسي عن نسختين قديمتين بخزانتي كوپرولو وأحمد الثالث.

(٢) معروف بن عبد الغني الرُّصافي البغدادي (١٣٦٤هـ-١٩٤٥م ببغداد)، شاعر العراق في وقته. تبارىٰ والزّهاويَّ زمناً، وتهاجيا، ثم كان لكلٍ منهما ميدانه: الرُّصافي بشعره، والزهاوي بفلسفته. قاله الأستاذ الزركلي في «الأعلام» (٧: ٢٦٩)، وانظر ترجمة معروفٍ كذلك في «المعاصرون» لكرد علي ص٤٤٠، و«معجم المؤلفين» (٣: ٨٩٨).

قلت: ومن شعره الدالِّ علىٰ إلحاده أبياتُه من قصيدته «حقيقتي السلبية» ـ كما في «ديوانه» ص١٨٩ ـ التي أبان فيها عن آرائه ومعتقده:

ولستُ مِنَ الذين يرَونَ خيراً ... بإبقاء الحقيقةِ في الخَفاءِ
ولا ممّن يَرىٰ الأديانَ قامَتْ ... بوَحيٍ مُنْزَلٍ للأنبياءِ
ولكنْ هُنَّ وضعٌ وابتداعٌ ... من العقلاء أربابِ الدَّهاءِ
ولستُ من الأُلىٰ وَهِمُوا وقالوا ... بأنَّ الرُّوحَ تعرُجُ للسماءِ

وقد ردَّ علىٰ كتابِ ابن كَمُّونةَ الإمامُ الأصوليُّ الفقيهُ مظفَّرُ الدِّين أحمدُ بن عليّ بن تَغْلِب الساعاتي البغدادي المتوفىٰ سنة ٦٩٤هـ[١] بكتابٍ سمّاه: «الدُّرُّ المنضود، في الردِّ علىٰ فيلسوفِ اليهود»[٢]، ولابن كمّونةَ عدّةُ مؤلفاتٍ في المنطق والفلسفة، منها: «شرحُ التلويحات» للشهاب السُّهْرَوَرديّ المقتول[٣].

= ولا ممّن قد ارتبطوا بماضٍ ... فعاشوا ينظرونَ إلى الوراءِ
ولا ممّن إذا وُبِشوا استعاذوا ... بتمتمةِ الدعاء من الوَباءِ
ولا مِن مَعشَرٍ صَلَّوا وصامُوا ... لمَا وُعِدُوهُ مِن حُسْنِ الجزاءِ
ولستُ من الذين يَرَون فضلًا ... كبيراً للرجال علىٰ النِّساءِ

وفي «موقف العقل» (١: ٢٩٠) أنّ الرصافيَّ كان إباحياً متحلِّلًا يبحثُ عن شهوات الجسد من أيِّ طريقٍ! وبه تُعلم حقيقةُ وطوية أولئك الداعين والمتحمسين لحرية المرأة!

(١) وصفه الحافظ القرشي في «الجواهر المضية» (١: ٢٠٩) بأنه: «إمامٌ كبير، عالمٌ علّامة»، وقال الإمام اللكنوي في «الفوائد البهية» ص٥١: «اشتغلَ بالعلم وبلغ رتبةَ الكمال، وصار إمامَ العصر في العلوم الشرعية، ثقةً، حافظاً، متقِناً في الفروع وأصوله، أقرَّ له شيوخ زمانه..».

(٢) ذكره في تصانيف الإمام ابن الساعاتي ابنُ قطلوبغا في «تاج التراجم» ص٩٥، وابن تغري بردي في «المنهل الصافي» (١: ٤٢١)، وغيرُهما. وممّن ردّ علىٰ ابن كمّونةَ كذلك العلّامةُ الإمامُ زين الدين سَرِيجا بن محمد المَلَطيّ ثم الماردينيّ الشافعي (ت ٧٨٨هـ) في كتابه «نهوض حثيث النهود إلىٰ دحوض خبيث اليهود». انظر «كشف الظنون (١: ٤٩٥) و(٢: ١٩٩٤).

(٣) منه نسخةٌ خطيّةٌ بمكتبة تشستربيتي بدَبْلن برقم (٣٥٩٨) في ٢١٦ ورقة، والجزءان الثاني والثالث من نسخةٍ أخرىٰ بالمكتبة نفسِها برقم (٤٦١٢) في ٢٢٧ ورقة. وله كذلك نسخةٌ بآياصوفيا بإستانبول. وبآياصوفيا أيضاً: «شرح الإشارات والتنبيهات لابن سينا» لابن كمُّونةَ كذلك.

[موسىٰ بن مَيمُون اليهوديّ][١]

وابنُ مَيمُون هو: أبو عمرانَ موسىٰ الأندلسي، تخرَّجَ في الفلسفةِ علىٰ أمثالِ ابنِ طُفَيلٍ وابنِ رُشد[٢]، فجرىٰ علىٰ تنزيهِ الله سبحانه عن الجسمية وعن مشابهةِ الحوادث مع تأويل نصوصِ كتبِ اليهود في التشبيه الصريح، فأصبح رئيسَ طائفةٍ منهم يتزعَّمُهم.

وهو شديدُ التحامل علىٰ المتكلِّمين في «دلالة الحائرين»[٣]، لكن ترىٰ علماءَ الإسلام قليلي الاهتمامِ بالردِّ عليه، ولعلَّ هذا التساهلَ منهم معه أتىٰ من جهة سَعيه الحثيثِ في انتشالِ اليهود من وَرْطة التجسيم المتوارَثِ بينهم، فوجدوا في عمله هذا تخفيفَ الشرِّ في جانب اليهود، فكان هذا شفيعاً له عندَهم. وتعرُّضُه لِفِرَقِ المسلمين لم يُبالوا به لكونه سهلَ الردِّ عليه، كقوله في نقض دليلِ المتكلمينَ في نفي الجسميةِ عن الله من (احتياج المقدار الخاصِّ إلىٰ مخصِّص، والمحتاجُ لا يكون قديماً) بأنّ مقدارَهُ يكون واجباً لا يحتملُ الزيادةَ والنقصَ، متغاضِياً عن أنّ الكمَّ المتصلَ القائمَ بالجسم عَرَضٌ طارىء، حيثُ غَفَلَ عن أنّ مثلَ هذا

(١) انظر ترجمته في «تاريخ الحكماء» للقفطي ص٣١٧، و«عيون الأنباء» لابن أبي أُصيبعةَ و«تاريخ مختصر الدول» لابن العِبْري ص٤١٧، و«الوافي» للصفدي (القسم المخطوط)، وغيرها.

(٢) ابن طُفَيل: أبو بكر محمد بن عبد الملك القيسي الأندلسي (٤٩٤-٥٨١هـ)، فيلسوفٌ وطبيب. وابن رشد هذا هو الحفيد الفيلسوف. وكان بين الرجلين مراجعاتٌ ومباحثاتٌ (في الطب). «الأعلام» (٦:٢٤٩).

(٣) طُبع هذا الكتاب عن أصوله العربية والعبرية بتحقيق وعناية الأستاذ الدكتور حسين أتاي التركي، وطُبع بتركيا، ثم صورته مكتبةُ الثقافة الدينية بالقاهرة.

الوجوبِ: ممّا يمكن ادّعاؤه في كل جسمٍ يُدّعىٰ قِدَمُه، مع أنّ قِدَمَ الأجسامِ ليس مِن مذهبه؛ بل يذكرُ نحوَ خمسٍ وعشرينَ مقدِّمةً تُنزِّهُ الباريَ تعالىٰ عن الجسمية[١]، وقد أخذَ الشيخُ الحرّانيّ في «معقوله»[٢] بكل أسفٍ برأي ابن ميمونٍ هذا في وجوب المقدارِ الخاصِّ في محاولته الردَّ علىٰ الآمدِي في تنزيه الباري جلَّ جلالُه عن الجهةِ مع ظهورِ سقوطِ رأي ابن ميمونٍ في المقدار الخاصِّ بما أوضحتُه، كما أخذَ برأي ابنِ ملكا في تجويز تغيُّرِ العلمِ والإرادةِ المتعلِّقَين بالمعلوم المتغيِّر ـ مع أنّ التغيُّرَ في نفس الصفةِ يُوجِبُ حدوثَ الموصوف ـ حتىٰ ادّعىٰ[٣] وجوبَ التنزيهِ عن هذا التنزيه![٤] وهذا قياسٌ منه للغائبِ علىٰ الشاهد، وتجويزٌ لحلولِ الحوادثِ في الله، المحالِ عندَ المتكلِّمينَ والفلاسفةِ في آنٍ واحد، وحرصٌ منه علىٰ استدامةِ تشبيهِ اليهودِ بعدَ تظاهُرِهِ بالإسلام. وقولُ القائلِ من المتكلِّمين بتغيُّرِ التعلُّقِ غيرُ القولِ بتغيُّرِ الصفة كما هو مشروحٌ في موضعه[٥].

(١) وقد نشر هذه المقدمات الخمس والعشرين المؤلفُ الإمام الكوثري رحمه الله تعالىٰ بشرح الحكيم البارع أبي عبد الله محمد بن أبي بكر التبريزي، وصدّرها بمقدمةٍ ضافيةٍ نفيسة، وطبعت بمطبعة السعادة بمصر سنةَ ١٣٦٩هـ، ثم أُعيد طبعُها تصويراً.

(٢) يعني ابنَ تيميّةَ في كتابه «بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول»، المسمّىٰ أيضاً: «درء تعارض العقل والنقل» (٤:٢٦٩-٢٧٢ ط د. رشاد سالم المحققة).

(٣) أي: ابنُ ملكا.

(٤) انظر قولَه هذا في كتابه «المعتبر في الحكمة» (٣:٧٧)، وقد نقله ابن تيميّة في «درء التعارض» (٢:٢٠٩ من ط د. رشاد سالم).

(٥) انظر: «الاقتصاد في الاعتقاد» للإمام الغزالي ص٩٥-٩٧ (في أحكام الصفات: أنها قديمة)، «شرح النسفية» للتفتازاني (١:١١٤ بحواشيه)، «شرح المقاصد» للتفتازاني (٤:١٢١)، وغيرها.

وقد وَسَّعَ الشيخُ الحرّانيُّ رأيَ ابنِ ملكا في العلم والإرادةِ إلىٰ أن جعله يشملُ الحرفَ، والصوتَ، والمَسَّ، والمشيَ، والقعودَ، والحركةَ، والحَدَّ، والجهةَ، وغيرَ ذلك بكلِّ وقاحة، فخرج عن الجادّةِ خروجاً بيّناً لا حجابَ دونَه[1].

مع أنه لا تغيُّرَ في علمِ اللهِ ولا في إرادتِه، لأنهما ليسا بزمانيّين ولا بمكانيّين كما في الشاهد، بل علمُ اللهِ حُضُوريٌّ ليسَ له تقدُّمٌ أو تأخُّرٌ زمانيٌّ أو مكاني، لتعاليهِ سبحانَه عنهما، وكذلك إرادتُهُ جلَّ جلالُه، وكلُّ ما هو مبسوطٌ علىٰ آناتِ الزمان ونِقاطِ الخَطِّ الممدودِ في المكان يعلمُهُ تعالىٰ علماً وَحْدانياً ثابتاً من غير تقدُّمٍ ولا تأخُّرٍ، فلا تغيُّرَ في علمِهِ وإرادتِهِ سبحانه، فالعَمُودُ الكبيرُ مثلًا إذا كان عليه أعلامُ ألوانٍ عريضةٌ متوازيةٌ فعندَ وضعِ النملة علىٰ لونٍ منها تَحسَبُ أنها تمشي في صحراءَ من السَّوادِ مثلًا، ثم في صحراءَ من البياض، وهكذا، فإبصارُها فيه تقدُّمٌ وتأخُّرٌ لضَعفِ باصِرَتِها بخلافِ باصِرَتِنا فإننا نرىٰ تلك الألوانَ بمرّةٍ واحدةٍ بدونِ تقدُّمٍ ولا تأخُّرٍ، فكيفَ عندَ الله، وكلُّ ما يتعلَّقُ بالله ليس له أيُّ شَبَهٍ بما عندَنا، فلا يُتصوَّرُ التقيُّدُ بزمانٍ ولا بمكان، لا في علمِهِ ولا في إرادتِه، وقد أخذَ الشيخُ الحرّانيُّ أسقطَ ما عندَ الرجلَين من الزَّيغ المبين، وفي ذلك عِبْرةٌ للمعتبِرين. وموسىٰ بنُ ميمونٍ توفيَ سنةَ ٦٠٠هـ أو ٦٠٥هـ بمصرَ، والكلامُ فيه طويلٌ.

(١) انظر بعض نصوصه في: «درء التعارض» (٢: ٧، ٥١ ط د. رشاد)، «منهاج السنّة» (٢: ٢٥٦ ط د. رشاد)، «التسعينية» (٢: ٤٩١، ٥٠٢ ط د. العجلان/ مكتبة المعارف بالرياض).

قال أبو حيّانَ الأندلسيُّ في «تفسيره» (٧: ٤٧٢) عن موسىٰ بن ميمونٍ هذا: «رئيسُ اليهود في زمانه بمصر، وكان هذا اليهودي قد أظهرَ الإسلامَ ورحلَ من الأندلس. . فلما قَدِمَ مصرَ ـ وكان ذلك في دولة العُبَيديين وهم لا يتقيَّدون بشريعة ـ رجع إلىٰ اليهودية، وأخبرَ أنه كان مُكرَهاً علىٰ الإسلام، فقُبِلَ منه ذلك، وصنَّفَ لهم تصانيفَ منها كتابُ «دلالة الحائرين»، وإنما استفادَ ما استفادَ من مخالطة علماء الأندلس وتودُّدِهِ لهم. والرياسةُ إلىٰ الآن بمصرَ لليهود في كل مَن كان مِن ذرّيته». اهـ.

[أبو البركات ابنُ ملكا اليهوديّ][1]

وابنُ ملكا هو: أبو البركات هِبةُ الله بن ملكا البغداديّ، صاحبُ «المعتبَر»[2]، المتوفىٰ سنة ٥٤٧هـ، قضىٰ معظمَ عمرِهِ وهو يهوديٌّ، ولمّا

(١) انظر ترجمته في «تاريخ الحكماء» للقِفْطي ص٣٤٣-٣٤٦، و«عيون الأنباء» لابن أبي أُصيبعة ص٣٧٤، و«تاريخ مختصر الدول» لابن العِبْري ص٣٦٤، و«الأعلام» للزركلي (٨: ٧٤). وانظر «وفيات الأعيان» (٦: ٧٤).

(٢) في الحكمة، طبعته دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد سنةَ ١٣٥٨هـ في ثلاثة مجلدات. وفي «المعتبر» يقول القفطيُّ في «تاريخ الحكماء» ص٣٤٣: «وهو أحسنُ كتابٍ صُنِّفَ في هذا الشأن في هذا الزمان». لكن الإمام الكوثري ـ واصفاً المؤلَّفَ والمؤلِّفَ ـ في تقدمته للمقدمات الخمس والعشرين ص١٠: «وقد أوتيَ ذكاءً وحُسْنَ بيان، مع مكرٍ بالغ، وشَغَبٍ ملبِّس، يَدُسُّ بهما في غضون كلامه ما ورثه من عقيدة التشبيه من نِحْلَتِهِ الأصلية، فيُروج تلبيسُه علىٰ مَن لم يُؤتَ بصيرةً نافذةً تجلو الحقائق، يتظاهرُ بالردّ علىٰ الفلاسفة في بعض مباحثِ المنطق والطبيعياتِ والإلٰهياتِ، فيكون ذلك سبباً لرواج شَغَبه عندَ بعض محدِّثي الحشوية في تجويز حلول الحوادث في الله سبحانه. .».

سمع أنَ ابنَ أفلَحَ[١] هجاهُ بقوله (وتمثَّلَ به ابنُ التلميذ)[٢]:

لنـا طبيـبٌ يهـوديٌ حَمـاقَتُـهُ إذا تكلَّـمَ تبـدُو فيـهِ مِـنْ فِيـهِ
يَتِيهُ والكَلْبُ أعلىٰ مِنهُ منزلةً كـأنَّه بَعـدُ لـم يَخْـرُجْ مِـنَ التِّيـهِ

تظاهرَ بالإسلام ابتعاداً عن الهَوان واللهُ أعلمُ بما في قلبه.

وهو الفيلسوفُ الوحيدُ الذي وجدَ ابنُ تيميّةَ بُغيتَه عندَه واتخذَهُ قدوةً لنفسه في القولِ بجوازِ حلولِ الحوادثِ في الله سبحانه[٣]، تعالىٰ الله عن إفْكِ الأفَاكِين.

---

(١) أبا القاسم عليَّ بنَ أفلحَ العبسي الملقَّبَ بجمال المُلْك (٤٧١-٥٣٥هـ ببغداد)، شاعرٌ من الكتّاب، مدح الخلفاء وأربابَ المراتب، وجابَ البلاد. «وفيات الأعيان» (٣٨٩:٣)، و«المنتظم» (وفيات سنة ٥٣٣)، وغيرهما.

(٢) أبو الحسن هبة الله بن صاعد، أمين الدولة، المعروف بابن التلميذ (٤٦٥-٥٦٠هـ ببغداد)، حكيمٌ نصرانيٌ عالمٌ بالطب والأدب له شعرٌ وترسُّلٌ جيد. انظر «الأعلام» (٧٢:٨) وهناك مصادر ترجمته، وتمثُّله بأبيات ابن أفلح انظره في «وفيات الأعيان» (٧٤:٦).

(٣) قال المصنف في تقدمته للمقدمات الخمس والعشرين ص١٠: «وأفاضَ ـ ابنُ ملكا ـ في الردِّ علىٰ القائلين بوجوب التنزيه عن تغيّر العلم، لكن بنوعٍ من التعمية تهَيُّباً من الوسط الإسلاميّ الذي يعيشُ فيه، مع أنّ حلولَ الحوادث فيَ ذات الله مُحالٌ عندَ المتكلمين والفلاسفة في آنٍ واحد، بل بحلول الحوادث فيِ العالَم استدلوا علىٰ حدوث العالم، فكيف يُستجازُ ذلك في مبدِع العالم؟! جلَّ جلالُه، وإن انخدعَ بكلامِ ابنِ ملكا: ابنُ تيميّةَ في «تلبيسه» و«تسعينيته» و«سبعينيته» و«منهاجه» و«معقوله»، بل وسَّعَ دائرةَ هذا التجويز إلىٰ حدِّ قبول الاستقرار المكاني والحركة والحدِّ والمسِّ والقعود والكلامِ بالحرف والصوت ونحوها من الأحداث في جانب الله جلَّ شأنُه مع خطورة ذلك عندَ أهل الحق..».

[أساليبُ العَداء ضدَّ الإسلام]

(١)

[الحروب الصليبية]

ومن المسلَّم به الذي لا رَيبَ فيه أنّ استذكارَ أساليبِ أعداءِ الدين الإسلامي في النَّيلِ منه علىٰ طول التاريخ ممّا يزيدُ القائمَ بالذَّبِّ عنه والجهادِ في سبيله بصيرةً تُنيرُ طريقَ الدفاع، ولذا يجبُ علينا أن نستذكرَ مسالِكَهم في العَداء ونعتبرَ بمواضع العِبَر فيها، لنكونَ علىٰ بيّنةٍ من أمرنا، وبعدَ أن ذكرتُ بعضَ حِيَلِهم في داخل الحِصْنِ الإسلامي أكشِفُ السترَ الآنَ عن بعضِ أعمالهم العَدائيةِ من الخارج، لنستدلَّ بتلك النماذج اليسيرةِ علىٰ المُمالآتِ الكثيرة المدبَّرةِ وراءَ اطِّلاعِنا.

وقد امتلأت كتبُ التاريخ بأنباء عُصْبةِ التعصُّب من حَمَلة الصليب الذين كانوا تكاتفوا في تجريدِ السيوف علىٰ الشرق الإسلامي في قرونٍ متتابعة، حيثُ كانوا يخافون علىٰ مصيرِ دينهم في عُقْرِ دارهم بما شاهدوا من سرعة انتشار الدين الإسلامي ـ دينِ الفِطرة ـ في الشعوب البشرية في شتّىٰ الأصقاع.

وكانت حَمَلاتُهم متواصلةً في غايةِ الشدة، لكنْ كان في العَرين أُسْدٌ لا يُصْطَلىٰ بنارِهم[١]، ولا يُمَسُّ أنْفُ أَنَفتِهم أصلاً إذ ذاك، حيثُ كان

---

(١) قال في «مختار الصِّحاح» (ص ل ا): وفلانٌ لا يُصْطَلىٰ بناره إذا كان شجاعاً لا يُطاق.

المسلمون في تلك القرون أُباةً أعزّاءَ تذوّقوا عِزَّ الحياةِ الإسلاميةِ بالمعنىٰ الصحيح، وقد تغلغَلَت التعاليمُ الإسلاميةُ في نفوسِهم تغلغُلًا يَحمِلُهم علىٰ الذَّودِ عن حِياضِها بمُهَجِهم، مُضَحِّين بكلِّ مُرتَخَصٍ وغالٍ في هذا السبيل، ولم يكن إسلامُهم مجرَّدَ إسلامِ المواسمِ الدينية، ولا بينَهم من يُوادُّ مَن حادَّ اللهَ ورسولَه ومالأ الأعداءَ خيانةً أو خَوَراً أو جُبْناً، فحالوا دونَ وصولِ الأعداء إلىٰ غاياتهم حتىٰ ارتدَّ المهاجمون علىٰ أعقابهم وعادوا أدراجَهم راجعين بخُفَّي حُنَين.

وقد تزلزت أقدامُهم، وارتعدَت فرائصُهم ممّا رأوا في الإسلام والمسلمين مِن سُمُوِّ المبادىء والنهوض الميمون، فازدادوا خوفاً علىٰ مصيرِ دينهم في ديارهم، فحاولوا في هذه المرحلةِ دفعَ الخطر الإسلامي عمّا يَدِينون به بإذاعةِ كلِّ سُوء عن الإسلامِ والمسلمين في بلاد الغرب، كذباً وزُوراً، لكنّ الواقعَ أنّ نَهضاتِ أوروبا في كثيرٍ من النواحي بعدَ ذلك إنما كانت بسببِ اتصالِ الصليبيين بالشرقيين في تلك الحروب الدامية.

(٢)

[الافتراءاتُ والأكاذيب]

فمن تلك النهضاتِ قيامُ اللوثَريين بالإصلاح الدِّينيّ المعروف، وإن كانت اللوثَريةُ لم تستطع أن تعدُوَ حدَّ أن تكونَ صفحةً من الوثنياتِ المتغلغلةِ في باقي فِرَقِهم، وكم أذاعوا عن الإسلام في تلك المرحلةِ من أكاذيبَ ملفَّقةٍ مما يندىٰ به جَبِين الحُرِّ خَجَلًا من تلك الافتراءاتِ المكشوفةِ الستار، والإسلامُ بَراءٌ منها جملةً وتفصيلًا، حتىٰ إنّ الكاتبَ

الغربيَّ المعروفَ (هانري دُوكاستري)[1] كان يتألّمُ من تلك الدعايات الكاذبةِ المذاعةِ في البيئاتِ الأوروبية عن الإسلام والمسلمين مِن غيرِ أن يكونَ لشيءٍ منها ظلٌّ من الحقيقة، ويقول:

«ماذا كان المسلمون يقولون لو بلغهم ما يُذاعُ عن دينهم من الأساطير والخرافاتِ في الأوساطِ الأوروبيةِ في القرون الوسطىٰ! إذ كان الجهلُ الحاكمُ في تلك القرون يحوكُ تلك الأساطيرَ بصنوفٍ من العدوان المكشوف والتعصُّب المرذول»، ثم قال: «حتىٰ إنّ سُوءَ القصدِ المتفشّي في الأوساط الأوروبيةِ إلىٰ اليوم ضدَّ الإسلام والمسلمين ما هو إلا أثرٌ باقٍ من تلك الخرافاتِ المُذاعةِ عنهم إذ ذاك، وكان كلُّ شاعرٍ من النصارىٰ في تلك القرون يصوِّرُ المسلمينَ عُبّاداً للأوثان ويقول: إنّ لهم ثلاثةَ آلهةٍ علىٰ ثلاثِ درجاتٍ: (١) ماهون (٢) أوبلين (٣) ترماكان، وكان هؤلاء الكتّابُ من أهل أوروبا يزعمون: أن محمّداً ﷺ أوجدَ ديناً يُعلِنُ فيه عن نفسه أنه إلٰه! وأشنعُ من ذلك وأغربُ أن يعتقدوا في محمّدٍ الذي هدمَ الوثنيةَ وأتىٰ بنيانها من الأساس وحطّمَ الأصنامَ وأزالَها من الوجود: أنه رجلٌ حملَ الناسَ علىٰ عبادةِ هيكلِهِ المصنوعِ من الذهب! وكان النصارىٰ حينما رَدُّوا المسلمينَ في إسبانيا إلىٰ أسوار سَرَقُسْطةَ أذاعوا أنّ المسلمين عادوا وأزالوا أصنامَهم! وكانت تلك الإذاعةُ الكاذبةُ منهم للحرصِ علىٰ عدمِ افتضاحِ كَذِبِهم علىٰ المسلمين بأنهم عُبّادُ أصنام،

---

(١) الكُونْت دي كاستري Castries, Cte H.de (١٨٥٠-١٩٢٧م)، له عدّة أبحاث أكثرها عن تاريخ المغرب، وكان مقدَّماً في الجيش. انظر «المستشرقون» لنجيب العقيقي (١: ٢٣٢).

مع أنهم لم يجدوا في مساجدهم أصناماً حينما استولوا علىٰ بلادهم ـ بل قد نظمَ بعضُ شعراء ذلك الزمنِ الخُرافةَ السائدةَ بين النصارىٰ في حق المسلمين قائلاً: (أوبلين) ـ إلٰهُ المسلمين ـ كان في داخل غارٍ فضربه المسلمون وامتهنوه ولعنوه وقطّعوه قطعةً قطعةً وداسُوه تحتَ أرجلهم، ثم ألقوا إلٰهَهُم الثاني (ماهون) في حفرةٍ فداسته الخنازيرُ والكلابُ وحَطَّمته، ولم يُحتَقَر في الدنيا إلـٰهٌ من الآلهة هذا الاحتقار، ثم نَدِمَ المسلمون علىٰ ما فعلوا فصنعوا من جديدٍ أصنامَهم التي خَرَّبوها. وكان الملكُ شارْل بعثَ رجالاً للفحص في كل مكانٍ عن أصنامِ المسلمين حينما دخلوا سَرَقُسْطَةَ حيثُ ذاعت عبادةُ الأصنام بينَهم من جديد، فدخلوا الجوامعَ وكسّروا الأصنامَ فيها بمطارقَ مِن حديد ـ هكذا أذاعوا كذباً وزُوراً». هذا ما يحكيه كاستري[1] عنهم.

وقال الشاعر ريشر[2]: إلٰهي أرسِلْ عذابكَ علىٰ عُبّادِ (ماهون) ـ يريدُ أمّةَ محمّدٍ عليه السلامُ كأنهم يعبدون صنمَ (ماهون). وكان هذا الشاعرُ يدعو النبلاءَ من أهل الصليب إلىٰ التجنيدِ العام ضدَّ الإسلام، ويقول: قُومُوا واهدِموا صنمَ (ماهون) وصنمَ (تارماكان) وأحرِقُوهما وضَحُّوا بهما في سبيل إلٰهكم.

هكذا كان شأنُ الغربيين في القرون الوسطىٰ في عَداء الإسلام والمسلمين، وقد عاشت تلك الخرافاتُ المفتراةُ علىٰ الإسلام مُدَداً طويلةً

(١) في المطبوع: كاسترو. تقدمت ترجمته.

(٢) لعلّه ريشير .Rescher, O (ولد عام ١٨٨٣م) المترجمَ في «المستشرقون» للعقيقي (٢: ٧٩١)، وهو مستشرقٌ ألمانيٌ عالمٌ بالأدب.

في أوروبا، بل القرونُ التالية لم تكن أحسنَ حالاً من القرونِ السابقة في رُوح العَداء للإسلام والافتراء علىٰ الإسلام وإن اختلفت الأساليب.

(٣)

[الاستشراق]

ولمّا كثر المنتبهون بينهم إلىٰ وجوه الفِرْية في دِعاياتهم ضدَّ الإسلام بدأ المموِّهون من دُعاة الغرب يسلكون طريقاً آخرَ في الإساءة إلىٰ الإسلام، وذلك أن يتظاهروا بمظهَرِ البحوثِ البريئةِ في الإسلام وتاريخ الإسلام، بالنقل عن الكتب المؤلَّفة في الشرق، فبدأوا منذ القرنِ السابعَ عشرَ الميلادي يترجمون إلىٰ لغتهم بعضَ نصوصٍ يتصيّدونها في كتب الشرق، ممّا يرَون فيه تشويهاً للتاريخ الإسلامي، وكان أولُ عملِهم ترجمةَ ما يرَون من ذلك في كتب أمثال سعيد بن البِطْريقِ الإسكندراني[1]، والشيخ المَكِين جَرْجَسَ بنِ العَمِيد[2]، وأبي الفرج غْرِيغُورْيُوسَ بن

(١) توفي سنة ٣٢٨هـ (ز).

قلتُ: سعيدُ بن البطريق: طبيبٌ نصرانيٌ مؤرِّخٌ من أهل مصر، وُلدَ بالفسطاط، وأُقيم بطريركاً في الإسكندرية، وسُمِّيَ أنتيشيوس (Entychius). كتبَ في التاريخ: «نظمَ الجوهر» مطبوعٌ، وله «الجدل بين المخالف والنصراني»، وغيرها. انظر «الأعلام» (٣: ٩٢).

(٢) توفي سنة ٦٧٢هـ (ز).

قلت: وهو مؤرِّخٌ من كتّاب النصارىٰ السريان، أصله من تكريت (علىٰ دجلة) ومولده بالقاهرة. نشأ في دمشق، وفيها كان موته. له كتاب «المجموع المبارك» جزآن، الأول في التاريخ القديم إلىٰ ظهور الإسلام، منه نسخٌ مخطوطة، والثاني =

هارونَ المَلَطيّ(١) من نصارىٰ الشرق، ثم في مصادرَ ألّفها غُلاةُ الشيعة ـ أذيالُ ابنِ سَبَأٍ السابقِ ذكرُه ـ ثم في كتب أمثال الواقديّ، وابنِ هشام، والطبري، وسائرِ الكتبِ الجامعةِ لكل غثٍّ وسمين، ممّا تحتاج نصوصُه وأسانيدُه إلىٰ نظرٍ فاحص، ونقدٍ شامل، وكان اهتمامُهم باديءَ ذي بَدْءٍ بكتب السِّيَرِ والمغازي، علماً منهم بأنّ التشكيكَ فيها يُثمِرُ ثمراتِ المُرُوق والتحلُّل في مقلِّدة الغرب من أبناء الشرق الأغرار، لجهلِهم بمداخل التلبيس ووجوهِ الفسادِ في عَرْضِهم للأنباء، ولعدمِ تضلُّع هؤلاء الأبناء في العلوم الإسلامية.

= «تاريخ المسلمين ـ ط» من بدء الإسلام إلىٰ عصر الملك الظاهر بيبرس. وقد تُرجم إلىٰ اللاتينية والفرنسية والإنجليزية. انتهىٰ من «الأعلام» (٢: ١١٦).

(١) معروفٌ بابن العِبْري توفي سنة ١٢٨٦م، وتواريخ الثلاثة مطبوعة (ز).

قلت: عُرِف بابن العِبْري لأنّ والدَه كان طبيباً يهودياً اعتنق النصرانية. وهو مؤرِّخٌ سريانيٌّ مستعربٌ من نصارىٰ اليَعاقبة، تعلّم العربيةَ والطبّ، واشتغل بالفلسفة واللاهوت، وتنقل في البلدان. وضع أكثر من ثلاثين كتاباً بالعربية والسريانية، ومنها تاريخُه «مختصر الدول»، طُبع غيرَ مرّة. انظر ترجمته في مقدمة تحقيق «تاريخه» من طبعة دار الرائد اللبناني ببيروت، وفي «الأعلام» (٥: ١١٧).

أقول: والذي يغلبُ علىٰ هذه المصادر العاطفةُ والتعصُّب، لأنّ مؤلفيها كانوا من طبقة رجال الدين الذين كرّسوا حياتَهم لخدمة الكنيسة والعقيدة النصرانية، وهي تبالغ في وصف الجوانب السلبية في التاريخ الإسلامي، تصف الفاتحين والولاة والخلفاء بالشراسة والظلم والبطش، وتسمّي النبيَّ ﷺ والخلفاء بـ «ملوك العرب»! وتركِّز علىٰ الفتن التي حصلت بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، مع كثير من المبالغات، وقد تستّرت تلك المصادر ـ كابن العِبْري خصوصاً ـ في طعنها في الإسلام وفي شخص النبي ﷺ بكونها كُتبت بالسريانية التي لا يعرفها المسلمون. انتهىٰ ملخصاً من مقال: «التاريخ العربي والإسلامي من خلال المصادر السريانية العراقية» للدكتور جاسم صكبان علي (مجلة عالم الفكر الكويتية ـ عدد الربع الأخير لسنة ١٩٨٤م).

[جَولةٌ في مصادر السِّيَر والأخبار]

وأمثلُ مَن كتب في السِّيَر من رجال الصَّدر الأول موسىٰ بنُ عُقْبة(١)، وعليه يعوِّلُ البخاريّ، وقد أثنَوا عليه خيراً، إلا أنّ رواياتِه عن ابن شِهاب(٢)، وقد ذكر الإسماعيليُّ الحافظ أنه لم يسمع منه شيئاً(٣)، وابنُ

---

(١) الإمام الثقة الفقيه (ت١٤١هـ). قال الإمام مالك: عليكم بمغازي الرجل الصالح موسىٰ بن عُقبة فإنها أصحُّ المغازي. «تهذيب التهذيب» (١٠: ٣٢٢) وغيره.

قال الحافظ الذهبي في «سِيَرِ النبلاء» (٦: ١١٦): «أما مغازي موسىٰ بن عقبةَ فهي في مجلَّدٍ ليس بالكبير، سمعناها، وغالبُها صحيحٌ، ومرسَلٌ جيد، لكنها مختصَرةٌ تحتاجُ إلىٰ زيادةِ بيانٍ وتتمة». قلت: نشرَ المستشرق سَخاوْ سنةَ ١٩٠٤م «أحاديثَ منتخبةً من مغازي موسىٰ بن عُقبة» انتخبها يوسُفُ ابن قاضي شُهْبة (ت ٧٨٩هـ). وكتب حول هذا المنتخب المستشرقان شاخت وغِيُوم، وفي كلامهما ضروبٌ مما أشار إليه الإمام الكوثري من محاولاتِ التشكيكِ والمغالطةِ في النقد. انظر كلامهما ونقده في مقدمة الدكتور الأعظمي لكتاب «التمييز» للإمام مسلم ص٨٨، وانظر كتابَه «دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه» ص٣٨٦-٣٩٠.

(٢) يعني: كثيرٌ منها عن الزهري، وإكثارُ موسىٰ عنه واضحٌ من «منتخب المغازي» الذي سبقت الإشارةُ إليه، إذ أكثر مِن شطر مروياته فيه عن الزهري. ولموسىٰ كتابٌ عن الزهري قال فيه ابنُ مَعين: كتابُ موسىٰ عن الزهري من أصحّ هذه الكتب. «تهذيب التهذيب» (١٠: ٣٢٢) وغيره. والزهريُّ نفسُه صنف في المغازي.

(٣) نقل ابن حجر كلمةَ الإسماعيلي هذه في «التهذيب» (١٠: ٣٢٣): «وقال الإسماعيلي في كتاب العتق: يُقال: لم يسمع موسىٰ بن عقبة من الزهري شيئاً. كذا قال». وفيه إشارةٌ إلىٰ عدم الاعتداد بذلك القول، وهو كذلك، إذ رواية عقبةَ عن الزهري في صحيح البخاري وسنن النسائي كما رمز بذلك المزّي عند ذكره للزهري في شيوخ عقبة في «تهذيب الكمال»، فضلاً عن كون الإسماعيلي حكاه بصيغة التمريض.

شِهابٍ تغلِبُ عليه المراسيلُ في باب السِّيَر والمغازي، ومراسيلُه شبهُ الريح عندَ ابن القطّان والشافعيّ.

وأما ابنُ جريرٍ الطبري صاحبُ «التاريخ» فجليلُ القدر في الحديث والتفسير والفقه، لكنه لم يضمَن صحةَ ما أورده في «تاريخه»، بل قال في (١: ٥): «فما كان في كتابي هذا ممّا يَستنكره قارئُه أو يستشنعه سامعُه، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ولا معنىً في الحقيقة فليعلم أنه لم يُؤتَ ذلك مِن قِبَلنا، وإنما أُتِيَ من قِبَلِ بعضِ ناقِليه إلينا، وإنما أدَّينا ذلك علىٰ نحو ما أُدِّيَ إلينا»، وقال هناك أيضاً: «إذ لم نقصد بكتابنا هذا قصدَ الاحتجاج..».

فبهذا يُعلمُ أنه تبرّأ من عُهدة رواياتِهِ في «التاريخ» وحَمَلها علىٰ أكتافِ رُواتِها له. ومحمدُ بن إسحاقَ صاحبُ «المغازي» اختلف فيه أهلُ النقد، وقد كذّبه كثيرٌ منهم[١]، وكان أبو حنيفةَ ومالكٌ لا يَرضَيانه، ومَن قَوّاه في المغازي اشترطَ في رواياتِهِ شروطاً لا تتوفّر في مواضع الرِّيبة، وفي «فهرست» ابنِ النَّدِيم كلامٌ طويلٌ فيه، فمنه: «مطعونٌ [عليه] غيرُ مرضيِّ الطريقة، يُحكىٰ أنّ أميرَ المدينة رُقِّيَ إليه أنّ محمداً يغازِلُ النساءَ فأمرَ بإحضاره.. وضربه أسواطاً ونهاه عن الجلوس في مؤخَّر المسجد،

(١) كسليمانَ التيميّ، ويحيىٰ القطّان، ووُهَيب بن خالد، والإمام مالك، وكلُّهم تَبِعَ في ذلك هشامَ بن عروة، وابنُ إسحاقَ بريءٌ منه، انظر تفصيلَه في «الميزان» (٣: ٤٧٠-٤٧١). وابن إسحاقَ مع كونه «حسنَ الحديث، صالحَ الحال صدوقاً» لكن «ما انفردَ به ففيه نكارةٌ؛ فإنّ في حفظه شيئاً»، قاله الحافظ الذهبي في «الميزان» (٣: ٤٧٥).

وكان حَسَنَ الوجه.. ويُقال: كانَ يُعْمَل له الأشعارُ ويؤتىٰ بها ويسأل أن يُدخِلَها في كتابه في السِّيرة فيفعل، فضمَّنَ كتابَه من الأشعارِ ما صار به فضيحةً عندَ رُواة الشعر..»[١]، والجمهورُ علىٰ تقويته في المغازي بشروطٍ معروفة، ورواياتُ مثلِه يجبُ التروِّي فيها ولو بالنظر إلىٰ رجال الأسانيد إليه، فراويتُه زيادُ البَكّائي مختَلَفٌ فيه؛ ضعّفه النَّسائي وتركه ابنُ المَدِيني، وقال فيه أبو حاتم: لا يُحتج به[٢]. وراويته الآخرُ سَلَمةُ بن الفضل الرازي مختَلَفٌ فيه أيضاً، يقول عنه أبو حاتم: لا يُحتج به[٣]. وراوية سَلَمةَ هذا هو محمد بن حُمَيدٍ الرازي، مختلَفٌ فيه، وقد كذّبه كثيرونَ أشنعَ تكذيب[٤]، وبطريقه يسوقُ ابنُ جريرٍ رواياتِ ابنِ إسحاقَ[٥].

(١) انظر «الفهرست» لابن النديم ص٩٢، و«الميزان» (٣: ٤٧١). لذا قال الحافظ الذهبي في ترجمته هناك: «هو صالحُ الحديث، ما له عندي ذنبٌ إلا ما قد حشا في السِّيرة من الأشياء المنكَرة المنقطعة والأشعار المكذوبة».

(٢) وقال الترمذي: كثير المناكير. قال صالح جزرة: هو في نفسه ضعيف الحديث، لكنه من أثبت الناس في المغازي، باع دارَه، وخرج يدور مع ابن إسحاقَ. «سِيَر النبلاء» (٩: ٥)، «تهذيب التهذيب» (٣: ٣٢٣). وفاته سنةَ ١٨٣هـ.

(٣) وقال البخاري: عنده مناكيره. ووهّنه ابنُ المديني، وضعّفه النَّسائي، وقوّاه غيرهم. «تهذيب التهذيب» (٤. ١٣٥). وفاته سنة ١٩١هـ.

(٤) من ذلك قول صالح جزرة: ما رأيتُ أجرأ علىٰ الله منه. وقال: ما رأيتُ أحذقَ بالكذب منه. وكذّبه أبو زرعةَ وابن خِراش وغيرُهما. «الميزان» (٣: ٥٣٠)، «تهذيب التهذيب» (٩: ١١١)، وغيرها. موتُه سنةَ ٢٤٨هـ.

(٥) وانظر بسطَ الكلام في رواة ابن إسحاق في الدراسة الموسّعة التي كتبها الأستاذ مُطاع الطرابيشي: «رواة محمد بن إسحاق بن يسار في المغازي والسِّيَر وسائر المرويات»، طبع دار الفكر بدمشق سنة ١٤١٤-١٩٩٤.

وأما هشامُ بن محمدِ الكَلْبيّ وأبوه والواقديُّ فالكلامُ فيهم معروفٌ، وأما راويةُ الوليدِ بن مسلم: محمدُ بن عائذٍ الدمشقي فيقول عنه أبو داودَ: هو كما شاء الله[١]. وأما سيفُ بن عمرَ التميميُّ صاحبُ كتاب «الرِّدة والفتوح» فمتروكُ الحديث عندَ أبي حاتم، وقد ضعّفه غيرُ واحد، بل رماه ابنُ حِبّانَ بالوضع، والراوي عنه شعيبُ بن إبراهيمَ من المجاهيل عندَ ابن عدي والذهبي[٢]، وله أخبارٌ فيها تحاملٌ علىٰ السلف، والراوي عن شعيبٍ هذا السَّرِيُّ بن يحيىٰ، غيرُ موثَّق[٣]، وهو شيخُ ابن جرير في رواياته عن سيف، وأما مَن فوق سيفٍ من الرجال فمجاهيلُ في الغالب، فإذا كانت أسانيدُ ابنِ جرير في السِّيَر كما ذكرناه تعيَّنَ وجوبُ التحرِّي في رواياته في السِّيَر لا سيّما في مواضعِ الانفراد، فضلاً عن وجوبِ ذلك فيمَن هو دونَه في العلم من حَمَلة السِّيَر، فاليعقوبيُّ شيعيٌّ متحامِلٌ[٤]،

---

(١) وهو ثناءٌ عليه، وقد وُثِّقَ ابنُ عائذ. انظر «سير النبلاء» (١١: ١٠٤)، و«التهذيب» (٩: ٢١٤). مولده سنة ١٥٠هـ ووفاته سنةَ ٢٣٢هـ.

(٢) «الكامل» لابن عديّ (٤: ٤)، وقال: «له أحاديث وأخبار، وهو ليس بذلك المعروف.. وفيه بعض النكرة، لأنّ في أخباره وأحاديثه ما فيه تحاملٌ علىٰ السلف» قال في «الميزان» (٢: ٢٧٥): «شعيب بن إبراهيم الكوفي، راويةُ كتب سيفٍ عنه، فيه جهالة». وانظر «لسان الميزان» (٣: ١٤٥).

(٣) وهو تميميٌّ كوفي، ابنُ أخي الإمام هنّاد بن السَّري، قال ابن أبي حاتم: كان صدوقاً. «الجرح والتعديل» (٤: ٢٨٥). وهو غير السَّريّ بن يحيىٰ البصري، أبي الهيثم الشيباني، فهذا طبقةٌ أعلىٰ، وهو من الثقات.

(٤) وهو أحمد بن إسحاقَ (أبي يعقوب) اليعقوبيّ (ت بعدَ ٢٩٢هـ)، مؤرِّخٌ جغرافيٌّ كثيرُ الأسفار، من أهل بغداد، اشتهر بكتابيه «البلدان» و«التاريخ»، وهما مطبوعان. طَبعت «تاريخَه» دارُ صادر ببيروت (١٣٧٩-١٩٦٠)، وطُبع في بريل بعناية المستشرق =

وأبو الفرجِ الأصبهانيُّ صاحبُ «الأغاني» من رجال الأسمار، لا من مصادرِ صحيح الأخبار، كان يأتي بأعاجيبَ بـ «حدَّثنا وأخبرنا»، وقد اتُّهِم؛ قال النُّوْبَخْتيّ: كان أكذبَ الناس، يدخلُ سوقَ الورّاقينَ وهيَ عامرةٌ والدكاكينُ مملوءةٌ بالكتب فيشتري كثيراً من الصُّحُف ويحملُها إلىٰ بيته، ثم تكون رواياتُهُ كلُّها منها. اهـ[١]. وقد أغنىٰ الله تعالىٰ أهلَ العلمِ عن[٢] هذا الظَّنينِ الوَسِخ[٣].

وتلك نماذجُ من مصادر السِّيَر وأخبارِ الصدرِ الأولِ تحملُ الحريصَ علىٰ الحقائقِ علىٰ التحرِّي البالغ في أسانيد الأخبار، ولا سيّما في مواضع الانفراد ومواطِنِ الرِّيَبِ التي يتمسَّكُ بها أعداءُ الإسلام جهلاً منهم أو

= هوتسْما M. Houtsma سنة ١٩٦٩. وله طبعتان شيعيّتان، الأولىٰ بالنجف سنة (١٣٨٤-١٩٦٤)، قدّمَ لها وعلّق عليها السيد محمد صادق بحر العلوم، والثانية ببيروت سنة (١٤١٣-١٩٩٣)، بعناية عبد الأمير المهنّا، طبع مؤسسة الأعلمي. وقد وصل في تاريخه هذا إلىٰ خلافة المعتمِد علىٰ الله العباسي سنة ٢٥٩ هجرية.

(١) أسنده إلىٰ النوبختيِّ: الخطيبُ في «تاريخ بغداد» (١١: ٣٩٩)، والنوبختيُّ هو أبو محمد الحسن بن الحسين النوبختي الكاتب (ت ٤٠٢هـ)، كان معتزلياً يتشيّع إلا أنه ثقةٌ في الحديث. كذا في ترجمته من «تاريخ بغداد» (٧: ٢٩٩).

(٢) في المطبوعة: من.

(٣) في الحسِّ والمعنىٰ! قال فيه هلال بن المحسِّن الصابي فيما نقله عنه ياقوت في «معجم الأدباء» (٥: ١٥٢): «كان وَسِخاً قذراً، ولم يَغسِل له ثوباً منذ فصَّلَه إلىٰ أن قطَعه!». وقال ابن الجوزي في «المنتظم» (وفيات ٣٥٦هـ): «مثلُه لا يُوثَقُ بروايته، يصرِّحُ في كتبه بما يُوجِبُ عليه الفسق، ويهوِّنُ شربَ الخمر، وربما حكىٰ ذلك عن نفسه، ومَن تأمَّلَ كتاب «الأغاني» رأىٰ كل قبيحٍ ومنكَر». وقد أكثر المعاصرون من الكتابة حول الأصفهاني و«أغانيه» تحليلاً ونقداً من الوجهتين الأدبية والتاريخية وغيرهما.

تجاهُلًا للعِلَل القاضية علىٰ تلك الأخبار، والتوسُّعُ في معرفة نقدِ الرجال به يَعرفُ المرءُ كيف يرُدُّ الفِرْيةَ ويقوِّي القوي، فيحتمي من الوقوع في أفخاخ الأعداء المنصوبةِ للكيد بالإسلام، وقد توسَّعتُ بعضَ توسُّعٍ في ذلك في مقالٍ لي في مجلة «الإسلام» (٥-١٣٦٢) تحت عنوان «خالدُ بن الوليد وقتلُ مالك بن نُوَيرة»[١]، وأبديتُ هناك شتّىٰ العِلَلِ في الأخبار المتضاربةِ في حادثةِ ابن نُويرة، ومن طالعَ كتبَ أخبارِ الصدر الأول التي ألّفها الأظِنّاءُ المتّهمون من رجال الشرق أو الغرب من غير خِبرةٍ في مداخل الفساد في تلك الأخبار ووجوه التدليس فيها وألّفَ أو ترجمَ شيئاً منها من غير تمحيصٍ هلكَ وأهلك، وضَلَّ عن سَواء السبيل.

فأُوصي كلَّ حريصٍ علىٰ دينه وكرامته أن يحتاطَ غايةَ الاحتياطِ في أنباء الصدر الأول بتعرُّفِ طرقِ تصفيتِها بمصفاةِ العلم، ووجوهِ عِيارها بمعايير الفهم، نسأل اللهَ سبحانه الصَّون والعَون.

وقد قلتُ في مقالٍ لي[٢]: إنه لا يخفىٰ علىٰ الباحثِ مبلغُ سعي أعداءِ الإسلام في كل دَور، ووجوهُ تجدُّدِ مكرِهم في كلِّ طبقة، فمِن ألوانِ مكرِهم في عهد تدوين الرواياتِ اندساسُ أناسٍ منهم بين نَقَلَة الأخبار، متلفِّعين بغير أزيائهم لترويجِ أكاذيبَ بينهم ممّا يشوِّهُ سُمعةَ الإسلام وسُمعةَ القائمين بالدَّعوة إلىٰ الإسلام، فراجت تلك الأكاذيبُ

(١) وهو ضمن «مقالاته» رحمه الله تعالىٰ ص٤٥٥-٤٦٢.

(٢) وهو الذي تقدمت إشارتُهُ إليه: «كلمةٌ عن خالد بن الوليد رضيَ الله عنه وقتل مالك ابن نُوَيرة»، «المقالات» ص٤٥٥.

المدبَّرةُ علىٰ نَقَلةٍ لم يُؤتَوا بصيرةً نافذة، فخلَّدوها في الكتب، حتىٰ ظلَّ الكائدون يتذَرَّعون بها في كل قرنٍ للكيد بالإسلام، لكنّ الله سبحانه أقامَ ببالغِ فضله جهابِذةً تضعُ الموازينَ القِسْطَ لتُعرَفَ الأنباء الصافية العِيار، من نَبَهْرَجِ الأخبار، فأصبحت تعاليمُ الإسلام وأنباءُ الإسلام في حِرْزٍ أمين من دَسِّ الدسّاسين عندَ مَن يعرفُ أن يَزِنَها بتلك الموازين، وكانت طريقةُ كُتّاب الغربِ في النَّيل مِنَ الإسلام طريقةَ الإقذاع المجرَّدِ والبَهْتِ الصِّرْف، إلىٰ أن جَدَّ لهم منذ قرنَين منهجٌ في تشويهِ الحقائق، يتصيَّدون أكاذيبَ من كتب الشرق، متظاهرين بمظهر البحثِ العلمي البَريء، فأخذ مَن له صلةٌ بهم من أبناء الشرق الأغرار ينخدعُ بكتاباتهم، وينشرُ خُزَعْبلاتهم بين بني قومه، فاستشرىٰ الشر، ووجبَ تداركُ الأمر، فأصبحَ مِن الحَتْمِ اللازمِ علىٰ كُتّاب «السِّيَر» ـ من أدباءِ اليوم ـ أن يأخذوا حِذْرَهُم وأسلحَتَهم إزاءَ الكتبِ المؤلَّفةِ في السِّيَر في الشرق والغرب قديماً وحديثاً، وأن يُضاعِفُوا السعيَ في تمحيص الحقائق بالموازين المعتبَرَة عند أهل النقد، بدون أن يجعلوا لأقلامهم الحريةَ المطلقةَ التي تعوَّدُوها في سَبْكِ القصص والرواياتِ العصرية، والموضوعاتِ الأدبيةِ في الصُّحُف السيّارة، محتاطين غايةَ الاحتياطِ في إيداع آرائهم ونقولِهم في الكتب، متريِّثين إلىٰ نتيجةِ عرضِها لمِحَكِّ النقدِ الصحيح، فإذا تبصَّروا هكذا في تعرُّفِ دخائل الكتب الشرقية خاصةً يسهُلُ عليهم القضاءُ علىٰ صنوفِ الكيد في كتب الغربيين[١].

(١) إلىٰ هنا تمَّ النقلُ عن المقالة المذكورة، «المقالات» ص٤٥٦.

[صُوَرٌ من فَعائل المُستشرقين]

ومؤلَّفاتُ الغرب ضدَّ الإسلام في القرنِ الثامنَ عشرَ الميلاديِّ وما بعدَه مسرودةٌ في مقدِّمة كتاب «سِيَر النبيّ ﷺ» للعلّامة شِبْليّ النعماني الهندي[١]، وهو كتابٌ جيّدٌ في تمحيص السيرةِ النبويةِ والردِّ علىٰ المشكِّكين فيها، قليلُ الأخطاء بالنسبة إلىٰ غيرِه، والغريب انخداعُ كثيرٍ من كُتّاب الشرق ـ فيما يؤلِّفونه في السِّيَر وتاريخ الصدرِ الأول ـ بمؤلفاتِ هؤلاء.

والأغربُ من ذلك أن نرىٰ صاحِبَ «المنار»[٢] يُقَرِّظُ كتابَ البرِنْس كايتانو الإيطالي[٣] ـ في عشرة مجلدات ـ في تاريخ الإسلام المعروف

---

(١) الملقَّب بشمس العلماء، عالمٌ، مؤرخٌ، أديبٌ، يُحسِنُ اللغاتِ الأُرْدية والفارسية والعربية، شارك في إنشاء دار العلوم التابعة لندوة العلماء في لكهنو، وأنشأ «دار المصنفين» في بلدته (أعظم كره)، وحجَّ ورحلَ إلىٰ كثيرٍ من البلدان الإسلامية، وكان وثيقَ الصلة بالعالم الإسلامي ونهضاته السياسيّة والاجتماعية. توفي سنةَ ١٣٣٢هـ. «الأعلام» (٣: ١٥٥)، «معجم المؤلفين» (١: ٨١١)، «الأعلام الشرقية» (٢: ٨٩١).

(٢) وهو الشيخُ محمد رشيد رضا (١٣٥٤هـ-١٩٣٥م) مؤسّس مجلة «المنار» وأحد أركان ما يسمىٰ بالإصلاح الديني، كان تلميذاً وفيّاً لمحمّد عبده، متأثِّراً بأفكاره وأفكار شيخه جمال الدين الأفغاني، إلا أنه نحا بعد وفاة عبده منحىً آخرَ إلىٰ جانب ذلك، وهو دعوته للحركة السلفية (الوهّابية)، ومحاربته لما يرىٰ أنه من البِدَع. اشتغل بالسياسة ولم يكن من أهلها كما يرىٰ صديقُه الأستاذ محمد كرد علي، «المعاصرون» ص٣٣٦. وقد أكثر المعاصرون من الكتابة حول حياته ونشاطه.

(٣) الأمير لِيُوني كايتاني Caetani, leone (١٨٦٩-١٩٢٦م)، ولد في روما وتخرّج في جامعتها، وتعلم سبع لغاتٍ منها الفارسية والعربية، وكان ثرياً. رحل إلىٰ الهند =

بالحَوْليات[١] ويُثني عليه خيراً مع أنه من شرِّ ما كُتب في هذا الموضوع مهما تظاهَرَ مؤلِّفُه بمظهر البحث البريء، وتراه أيضاً يثني في «مناره» علىٰ «تاريخ الإسلام» للدكتور دُوْزِي الهولندي[٢] مع أنه مِن أشدِّ مَن ألَّفَ مِن

= وإيران ومصر وسوريا ولبنان، وجمع مكتبةً زاخرةً بالمخطوطات الشرقية. عُدَّ بمؤلفاته أكبر مستشرقٍ في التاريخ العربي ومرجعاً للكثيرين. انظر ترجمته في «المستشرقون» للعقيقي (١: ٣٧٢)، و«المعاصرون» لمحمد كرد علي ص٣٢٢، و«الأعلام» (٥: ٢٥٠).

(١) وصل فيه إلىٰ تأريخ سنة ٤٠ للهجرة. «وقد أنفقَ علىٰ ثلاث بعثاتٍ إلىٰ مناطق الفتح لرسمها جغرافياً وطُبُوغرافياً، وجمعَ المصادر من اللاتينية والسريانية والعربية، وتناولها بالنقد والتحليل لتحقيق أخبار المصادر العربية التي لم تُنشَر بعد، وتحديد ما ينبغي الرجوعُ إليه منها لمعرفة كل حادثة، وأرسل تجاربَ المطبعة إلىٰ المختصِّين بالفتح، وأخذ بملاحظاتهم عليها، ونشر مصنَّفَه الكبير نشراً أنيقاً محلّىً بالرسوم والخرائط المفصَّلة، ووزّعه علىٰ العلماء والدوائر العلمية، ثم أفلس!». «المستشرقون» للعقيقي (١: ٣٧٣). ونقلتُه بطوله ليعتبرَ به العلماءُ الكسالىٰ! وأثرياءُ المسلمين المنفقون فيما لا ينفع! والله المستعان.

(٢) رينهارت دوزي Dozy, Reinhart (١٨٢٠-١٨٨٣م)، مستشرقٌ هولنديٌّ كبير، اشتهر بكتابيه «تاريخ المسلمين في إسبانيا» في أربعة مجلدات ـ وهو من أكبر أعمال المستشرقين ـ و«تكملة المعاجم العربية» في مجلدين، وقد تُرجما إلىٰ العربية. كان مولَعاً باللغات، فأتقن الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية والعربية، وكذلك دَرَس العِبْرية والكلدانية والسريانية، إضافةً إلى لغته الهولندية. له مقالاتٌ وأبحاثٌ عديدة. أما كتابه «تاريخ الإسلام» فتناولَ فيه التاريخَ الإسلاميَّ من العهد النبوي حتىٰ عام ١٨٦٣م. «موسوعة المستشرقين» لعبد الرحمٰن بدوي ص١٧٢-١٧٧، «المستشرقون» للعقيقي (٢: ٦٥٨).

لطيفة: في ترجمة دوزي أنه في عام ١٨٤٥م بنىٰ بآنسةٍ هولندية، ورحل معها إلىٰ ألمانيا لقضاء شهر العسل، ولكنه قضاهُ في مكتباتها! وكان من نتيجة ذلك عثورُهُ علىٰ =

الأوروبيين في تاريخ الإسلام تشويهاً للحقائق، فإذا كان المتجرِّدُ للذَّبِّ عن الإسلام في مدرسة الشيخ عبدُه[1] يكِيلُ الثناءَ جِزافاً هكذا لأضَرِّ الكتب قبلَ أن يطّلِعَ علىٰ أصلِ الكتابين ولا علىٰ ترجمتهما فماذا يكون حالُ الشبيبةِ الذين ينهَلون من مناهل الغرب قبلَ أن يتضَلَّعوا في العلوم الشرقية؟! وقىٰ اللهُ الإسلامَ شرَّ مثلَ هذا الذابِّ عن حريمِ قُدْسِ الإسلام.

ثم بدأ المستشرقون من اليهود ـ ومعهم غيرُهم ـ يبحثون في القرآن، وعلوم القرآن، والحديث، والفقهِ وأصوله، وعلم أصولِ الدين، وتاريخ النِّحَل، بُغيةَ أن يجدوا فيها ما يُمَكِّنُهم من التشكيك في أصول الإسلام، ساعِينَ جهدَهم في إخفاءِ غاياتهم من تلك البحوث، متظاهرينَ بالإنصاف في بعضِ المسائل ليُلْقُوا في رُوعِ ضَحاياهم أنهم علىٰ الحق في جميع بحوثهم، وما هم إلا كصيّادٍ يرمي طُعماً شَهِياً ليظفرَ بصيدِهِ كلّه غنيمةً باردة، والوقوعُ في الفَخِّ عاقبةُ مَن يَمَّمَ مناهِلَ الغربِ قبلَ أن يرتويَ مِن مَعِينِ الشرقِ الفيّاض بما فيه وقايةٌ لحياتِهِ الرُّوحية، وضحايا هذا الفريقِ من المستشرقين في غايةِ الكثرة.

= الجزء الثالث من كتاب «الذخيرة» لابن بسّام الشنتريني، وجنىٰ في رحلته العديدَ من الفوائد. هذه هِمَّتُهم، فأين نحن اليوم!

(١) الشيخ محمد عبده (١٣٢٣هـ-١٩٠٥م)، نشأ أزهرياً، «ثم إنه تلقّىٰ كثيراً من كتب الفلسفة عن جمال الدين المازندراني [الأفغاني]، ورحلَ إلىٰ الغرب وكرع من ينابيعه العَكِرة» كما يقول المؤلف في «مقالاته» ص٣٧٤، ولذا كان متساهلاً في الإفتاء، وانضم ـ كشيخه الأفغاني ـ للماسونية، ودعا إلىٰ التقريب بين الأديان، وكانت له علاقةٌ مُريبةٌ بالإنجليز. وانظر كلام المؤلف في أطوار حياة محمد عبده في كتابه «نظرة عابرة» ص٧١-٧٣.

ومن أخطر هذا الفريق المُموِّهُ غُولْدزِيهير، المَجَرِيُّ الدم، اليهوديُّ النِّحْلة[1]، العريقُ في عَداء الإسلام، الماضي في هذا السبيل طولَ حياته، وهو من رجال أوائل القرن الميلادي الحاضر، وله دراساتٌ في القرآن وعلوم القرآن، وفي الحديثِ وعلومه، والفقهِ وأصوله، وفي الكلام وفِرَقِ المتكلمين، محتالٌ ماهرٌ في توليدِ ما يشاءُ من نصوصٍ يتصيّدُها من مصادرَ تعجبه باعتبارِ غايته، مغالطاً في تحميلها ما لا تحتمله من المعاني عندَ أهلِ البَصيرة، ومتجاهِلاً اختلافَ منازلِ تلك المصادرِ في الثقةِ والتعويل، فلو شُكِّلَت لجنةٌ علميةٌ لفحصِ كتبِ هذا المَجَرِيِّ المنطوي علىٰ عَداءٍ بالغٍ للإسلام لوَضَحَ الصبحُ لكل ذي عينَين، ولَسَهُلَ الردُّ علىٰ الماكرِ المخادع، لكنّ ترجمةَ تلك الكتبِ بمعرفة بعض الأزهريين[2] من

(١) إجناتس جُولدتسيهر (هكذا يُلفظُ اسمُه بالألمانية) Goldziher, Ignaz (١٨٥٠-١٩٢١م)، مستشرقٌ يهوديٌّ مَجَريّ، من كبار المستشرقين، تعلَّم في بودابست وبرلين ولِيبْسك، رحل إلىٰ الشام وفلسطين ومصر، ودرس العربية على بعض الأزهريين، وأجادها، وأتقن الألمانية، والإنجليزية، والفرنسية. بلغت أبحاثه ٥٩٢ بحثاً، منها: «الظاهرية، مذهبهم وتاريخهم»، «دراسات إسلامية» جزءان، «محاضرات في الإسلام»، «اتجاهات التفسير عند المسلمين»، وغيرها. انظر ترجمته في «الأعلام» (١: ٨٤)، و«موسوعة المستشرقين» لبدوي ص١١٩-١٢٦، و«المستشرقون» للعقيقي (٣: ٩٠٦)، و«المعاصرون» لكرد علي ص١٣٢. وانظر نماذجَ من دخائله في كتاب «السنة» للشيخ مصطفىٰ السباعي رحمه الله ص١٨٩-٢٣٥، وغيره.

(٢) ككتاب «العقيدة والشريعة في الإسلام»، نقله إلىٰ العربية الأساتذة محمد يوسف موسىٰ، وعلي حسن عبد القادر، وعبد العزيز عبد الحق، سنة ١٩٤٦م، وكتاب «المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن» نقله إلىٰ العربية د. علي حسن عبد القادر سنة ١٩٤٤، ثم ترجمه مرةً أخرىٰ عبد الحليم النجار سنة ١٩٥٥م باسم: «مذاهب التفسير الإسلامي».

غير عُدّةٍ كافية، ونشرَها بدون ردودٍ وافية، وعرضَ شكوكِ المشكِّكين من أعداء الإسلام هكذا لأنظارِ الناطقين بالضاد: تكونُ نيابةً عن الفاتنين في إيصال تشكيكاتهم إلىٰ البيئاتِ الإسلامية، وهذا يَتَحَتَّمُ أن يكونَ مما لا يرضاه الأزهر: مَعْقِلُ الإسلامِ الأوحد ـ فيما نرىٰ ـ فيجبُ أن يكونَ القرارُ الذي كان الأزهرُ أصدرَه قبلَ سنين في ترجمةِ كتب أمثالِ غُولْدزِيهير ونشرِها مشروطاً باستيفاءِ الردودِ عليها كاملةً غيرَ منقوصةٍ في غير هَوادة، وإلا كان الأزهرُ عَمِلَ نقيضَ واجبه، رغبةً منه في التظاهر بمظهرِ التجديدِ العصري، غيرَ آبِهٍ بالغاية الأصلية من وجود الأزهر ومن إغداق مالِ الأمّةِ عليه.

[آفاتُ المسلمين ومكايدُ الأعداء]

والواقعُ أنّ مرضَ مسايرةِ الزمنِ قد يُوقِعُ العالِمَ المائعَ في النظر إلىٰ الشرق بمنظار مصغِّر، وإلىٰ الغرب بمنظارٍ مكبِّر، فيُلبِّي مسرعاً النداءاتِ الموجَّهةَ إليه من هيئاتٍ غيرِ إسلامية، مع إغفالِ كثيرٍ من رغباتِ الجماعاتِ الإسلامية، ويتسرَّعُ في إيفاد ممثِّلين إلىٰ مؤتمراتِ الأديانِ أو القوانين والشرائع في العالَمِ الغربيِّ والشرقي ـ بدلَ الاهتمام بترقيعِ الخُرُوقِ في الداخلِ واستكمالِ النقص البارزِ في العلومِ الأصلية ـ ويبعثُ بعثاتٍ إلىٰ جامعاتِ المستشرقين في أوروبا لا لنشر الإسلام في تلك الأصقاع بل للتضلُّع في العلومِ الإسلامية علىٰ أيدي أساتذةِ تلك الجامعاتِ المنطَوِين علىٰ أغراضٍ عَدائيةٍ اكتساحيةٍ نحوَ الشرق

الإسلامي، ويتآخىٰ بصفاءٍ مع شتّىٰ الأديان والنِّحَل، فيَتساهلُ مع جماعاتٍ تتكوَّن في الداخل أو الخارج بتوجيهٍ (برّاني) من رجالِ شتّىٰ الأديان والنِّحَل والمذاهبِ المنحرفةِ عن مناهج أهـل الحق، تحتَ ستارِ التقريبِ بين الطوائف، وزرعِ التحابُبِ والإخاءِ بينهم، وردِّهم جميعاً إلىٰ الأصولِ المتفَقِ عليها بين الأديان، وإغفالِ مواطنِ الشقاقِ والخلاف لتكونَ لهم رسالةٌ مشتركةٌ خالدةٌ لا اختلافَ فيها ودينٌ موحَّدٌ (دينُ إسبرَنْتو)(١) !

والذين يُراد إيقاعُهم بذلك في الأحبُولةِ هم المسلمون، وتلك الجمعياتُ التي تَلهَجُ بتوحيدِ الأديان إنما يريدونَ استزلالَ قدمِ الشرق من موقفِ الاستمساكِ بدينِ الإسلام وفِقْهِ الإسلام، باسمِ أنّ التمسُّكَ تعصُّبٌ يجبُ هجرُه، فيصبحُ هكذا لقمةً سائغةً في حُلُوق المبتلِعين من الغربيين، لأن مَن لا تمسُّكَ عندَه لا غَيرةَ ولا حَمِيّةَ ولا عِزّةَ ولا كرامةَ عندَه، فيكون كِيانُه في مهبِّ الريح، وذلك الدينُ الموحَّدُ لا يكون دينَ الإسلام، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]. فيكونُ (دِينُ إسبرنتو) الذي يدعو إليه هؤلاء غيرَ دينِ التوحيدِ الذي قامَ بالدعوة إليه خاتمُ رُسُلِ الله صلواتُ الله وسلامُه عليهِ وعليهم أجمعين.

---

(١) إسبرَنْتو (Esperanto): اسمُ لغةٍ اخترعها رجلٌ يُدعىٰ د. زامينْهوف Dr. Zamenhof (سنة ١٨٨٧م) بهدف أن تكونَ لغةً موحّدةً بين الأمم! وكانت محاولةً فاشلة.

وتلك أمورٌ تُعجِّلُ الانحلالَ الدينيّ والخُلُقيَّ والسياسيَّ في الجماعة، وتبدِّدُ كِيانَ الفقهِ الإسلامي ـ الذي حَفِظَ دينَنا وكِيانَنا وعزّتَنا وكرامَتَنا من فجر الإسلام إلىٰ اليوم ـ وتزيلُ أيضاً من النفوس تلك العقيدةَ الإسلاميةَ التي كوّنَت هذه الأمةَ كأمةٍ حيةٍ ذاتِ عزّةٍ خالدة.

[خطورة المشاركة في مؤتمرات الأديان]

وأقلُّ ما في بعثِ عضوٍ ممثِّلٍ إلىٰ مؤتمر الأديان: الاعترافُ ـ باسم المسلمين ـ بأنَّ الإسلامَ علىٰ قَدَمِ المساواةِ مع الأديانِ الباطلةِ في نظر المسلمين، فأيُّ كسبٍ في هذا؟ وأنّىٰ يُقِرُّ الإسلامُ هذا الوضعَ؟ وكيف يستسيغُ مسلمٌ أن يتخلّىٰ عن بعض أحكامِ الإسلامِ للتقرُّبِ إلىٰ دينِ غيرِ دينِهِ؟ وما ذلك إلا إيمانٌ ببعض الكتابِ وكفرٌ ببعض. ثم ماذا نكسبُ من اعترافِ مجمعٍ قانوني بأن يكونَ الفقهُ الإسلاميُّ من مصادر التشريع غيرَ جعله في صف القانونِ الروماني المعروف؟ وهذا اعتزازٌ هزيلٌ ممّن لا يعرفُ مبلغَ أخذِ التشريعِ الأوروبي عن الفقه الإسلامي عامةً وعن فقه مالكٍ خاصةً بمناسبة المجاورة كما يظهر من «تاريخ الكنيسة» لموسهَيم[١]، وقد ألّف الشيخُ مخلوفُ المِنْياويُّ من فُضلاءِ المالكيةِ في أواخر القرنِ الهجري المنصَرِم[٢] كتاباً فيما أخذه الغربُ من مذهبِ

(١) لم أظفر بشيءٍ عن هذا الكتاب أو مؤلفه إلىٰ الآن.

(٢) الشيخ مخلوف بن محمد البدوي المِنْياوي المصري المالكي (ت ١٢٩٥هـ)، عالمٌ أزهريٌّ فاضل، تولّىٰ القضاء بمديرية المِنْيا، له حواشٍ ورسائلُ في البلاغة والفقه وغيرها. انظر «الأعلام» (٧: ١٩٤)، و«معجم المؤلفين» (٣: ٨٣٨).

مالك، وهو محفوظٌ في دارِ الكتبِ المصرية تحت رقم ١٠٨٥ في الفنون المتنوعة، ويُعلَم مِن كتبِ أهل الشأن أن أهلَ أوروبا هم الذين كانوا عالةً علىٰ علومِنا في زمنٍ من الأزمان، لا أننا عالةٌ عليهم يوماً ما في كل شيءٍ حتىٰ الفقه الإسلامي والعلومِ الإسلامية!

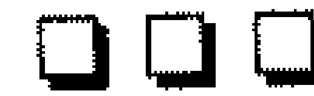
وتلك المحاولاتُ من الأعداءِ بواسطةِ صنائعهم في بلادِ الإسلام إنما هي لإزالةِ ما نحمِلُه في قَرارةِ نفوسِنا من اعتقادِ القَداسة في الفقه الإسلاميِّ بحق، لنجعلَه في صفِّ القوانين الوضعيةِ التي تتبدَّلُ وتتغيَّرُ بتغيُّرِ أهواءِ الحُكّام، فإذا تابعناهم في ذلك نكونُ قد قَطَعنا بأيدينا هذا الرِّباطَ القويَّ الذي به كان تماسُكُنا، فنقعُ في فوضىٰ تشريعية، وهذه غايةٌ لها قيمتُها في نظر أعداءِ الإسلام، فيُثيرون بواسطةِ صنائعهم في الداخل بينَ حينٍ وآخرَ تحبيبَ المِساسِ بالفقهِ الإسلاميِّ بشتّىٰ المحاولاتِ مِن توحيدٍ وتقريبٍ ومقارنةٍ بينه وبين القوانين السابقة وتصفيةٍ لمسائله بمِصْفاةِ الغربِ باسم الإصلاح، وكلُّ ذلك مما رأينا بوادِرَهُ الخَطِرةَ في الأزهر الحديثِ منذُ سنوات، وتحدَّثنا عن كثيرٍ من ذلك في حينه، ولا يتّسعُ المقامُ للإفاضة في دَخائلِ هذه الاتجاهات، وإني أرىٰ أنّ الشيخَ الذي يُولّىٰ أمرَ الأزهر قريباً[١] سَيجِدُ التَركةَ في غاية الثِقَل من كل ناحيةٍ إذا أرادَ القيامَ بواجبِهِ كشيخٍ للمَعقِلِ الأوحدِ للإسلامِ وعلومِ الإسلام، فتتمنىٰ له

(١) وكان ذلك بعدَ وفاة الشيخ مصطفىٰ عبد الرازق رحمه الله سنة ١٩٤٧ (آخر ١٣٦٦هـ)، وتولّىٰ مشيخةَ الأزهر بعده الشيخ محمّد مأمون الشّنَاوي حتىٰ سنة ١٩٥٠، حيث تولىٰ المشيخةَ الشيخ عبد المجيد سليم، رحمهم الله أجمعين.

التوفيقَ في تقويمِ الاتجاه، وإصلاحِ شؤون التعليم والتهذيب، والنهوضِ بالأزهر[١].

والله سبحانه هو الهادي الموفِّق، وإليه مرجعُ الأمرِ كلِّه، وآخرُ دَعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وصلىٰ الله علىٰ سيِّدِنا محمدٍ وآله وصحبِهِ أجمعين.

كتبه الراجي غفرانَ ذنوبِهِ محمد زاهد بنُ الحسنِ بنِ عليٍّ الكَوثَري، عُفِيَ عنهم وعن أمّهاتهم وقَرابَتهم ومشايخِهم، في يومِ الخميس ١٤ المحرَّم سنةَ ١٣٦٧هـ[٢]، حامِداً ومصَلِّياً، بمنزله في القاهرة[٣] حرسَها اللهُ تعالىٰ[٤].



---

(١) وقد كان للإمام الكوثري رحمه الله تعالىٰ جهودٌ عديدةٌ في توجيه مسيرة الأزهر كما يظهر من «مقالاتـه»، وفي آخرها ص٥٦٥ نصُّ التقرير الذي قدّمه للشيخ مصطفىٰ عبد الرازق في سبيل إحياء علوم السنّة بالأزهر. وهو صورةٌ مشرقة لهذا العالم الناصح.

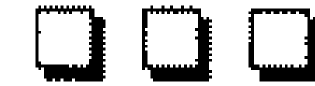
(٢) فيكون تأليفُه لهذه الرسالة قبل وفاته بخمسِ سنين إلا شهرين تقريباً، رحمه الله تعالىٰ رحمةً واسعةً وأجزل مَثُوبتَه.

(٣) وهو المنزل رقم ٦٣ من شارع العبّاسية بالقاهرة، سكنه ـ رضيَ الله عنه ـ عشرَ سنين، من أوائل سنة ١٣٥٨هـ إلىٰ أواسط سنة ١٣٦٨هـ. مقدمة «المقالات» ص١٠.

(٤) فرغتُ من ضبطِ هذه الرسالة المباركة والتعليقِ عليها بعدَ ظهرِ الأربعاء ١٨ من صفر الخَير سنةَ ١٤٢٠هـ، الموافق ٢ من حزيران سنةَ ١٩٩٩م. وأنا الفقيرُ إليه تعالىٰ إياد بن أحمد بن سالم الغَوج، عفىٰ الله عنهم بمَنِّه وكرَمه، آمين، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة



يصدر قريباً بإذن الله:

إتحاف الكائنات

ببيان مذهب السلف والخلف في المتشابهات

تأليف

العلامة الشيخ

محمود خطاب السبكي

المتوفى سنة ١٣٥٢ هـ

رحمه الله تعالى

تحقيق

الدكتور جمال محمود أبو حسان

دار الفتح

عمان - الأردن